اختيارات جائزة ابن بطوطة - الرحلة المترجمة 2017 - 2018

ماريا تير ميتلن

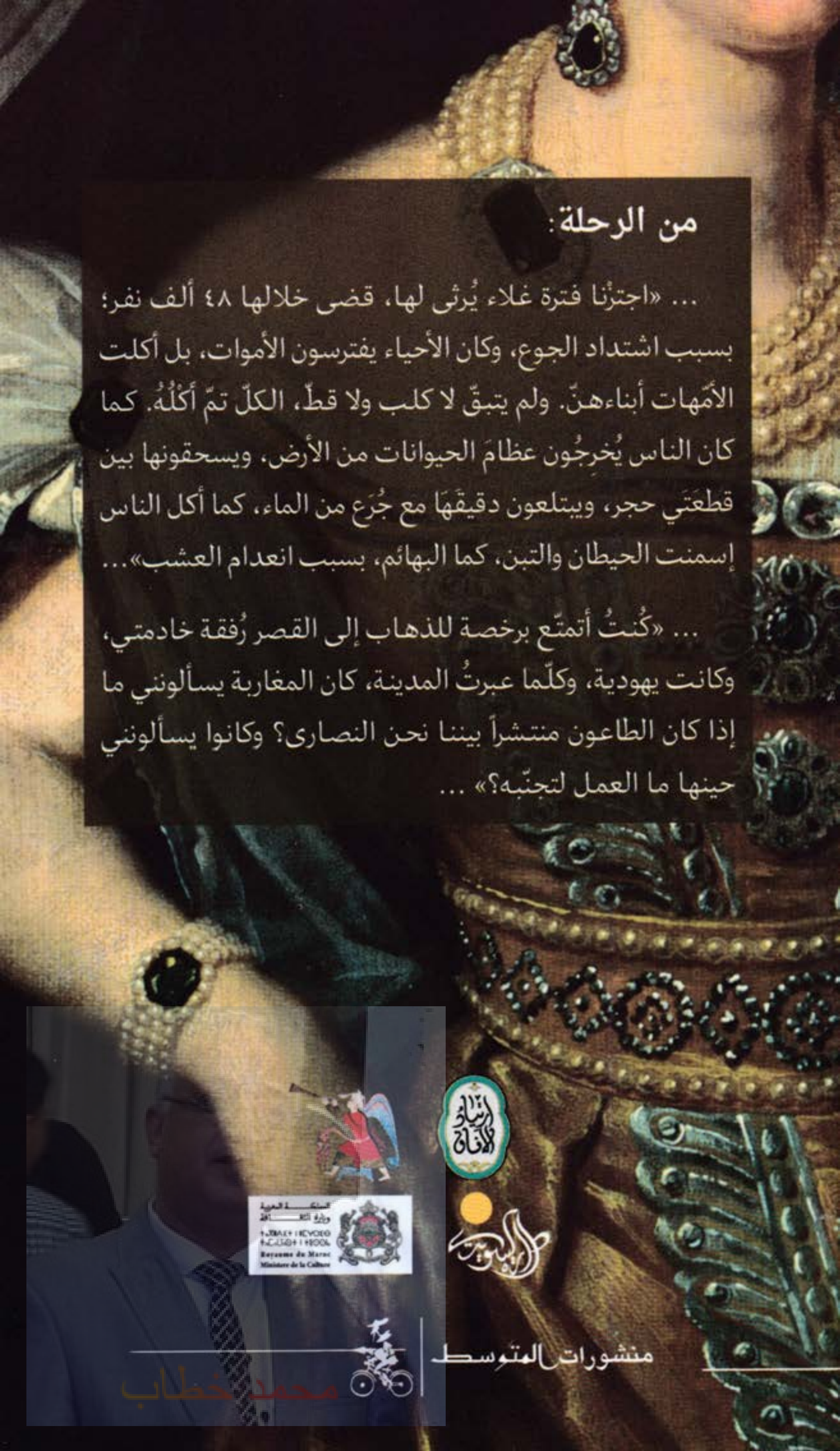
اثنتا عشرة سنة من الاستعباد

رحلة أسِيرة هُولَندية في بِلاد المغرب 1731-1743

ترجمة وتقديم: بوشعيب الساوري

المتوسط





من الرحلة:

... «اجتزْنا فترة غلاء يُرثى لها، قضى خلالها ٤٨ ألف نفر؛ بسبب اشتداد الجوع، وكان الأحياء يفترسون الأموات، بل أكلت الأمّهات أبناءهنّ. ولم يتبقّ لا كلب ولا قطّ، الكلّ تمّ أكْلُهُ. كما كان الناس يُخرِجُون عظامَ الحيوانات من الأرض، ويسحقونها بين قطعَتَي حجر، ويبتلعون دقيقَهَا مع جُرَع من الماء، كما أكل الناس إسمنت الحيطان والتبن، كما البهائم، بسبب انعدام العشب»...

... «كُنتُ أتمتّع برخصة للذهاب إلى القصر رُفقة خادمتي، وكانت يهودية، وكلّما عبرتُ المدينة، كان المغاربة يسألونني ما إذا كان الطاعون منتشراً بيننا نحن النصارى؟ وكانوا يسألونني حينها ما العمل لتجنّبه؟» ...

منشورات المتوسط

ماريا تير ميتلن: Maria Ter Meetelen، هولندية ولدت سنة ١٧٠٤. تمّ تعميدُها كاثوليكيا يوم ٢٠ حزيران/يونيو ١٧٠٤ بأمستردام؛ وفي سنّ الثالثة عشرة شرعت في التجّول بأوروبا. خضعَت للتجنيد الإجباري، مُدّة من الزمن في كتيبة إسبانية، وتعرّضت للأسْر بمكناس في الفترة الممتدة من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٤٣. آخر ما عرف عنها أنها كانت ما بين سنتي ١٧٥٣-و١٧٧٤ بميدنبليك. ولا يُعرف أي شيء آخر عنْها تقريباً بما في ذلك تاريخ وفاتها.

كتبت ميتلن يومياتها هذه، بعد خمس سنوات من عودتها إلى بلدها، وتحديداً سنة ١٧٤٨. وبقي النص مخطوطاً إلى أن صدر باللغة الهولندية سنة ١٩٣٣، وبعدها في الفرنسية سنة ١٩٥٦م، (وهي النسخة المعتمدة في هذه الترجمة) وبالإنكليزية سنة ٢٠١٠.



منشورات المتوسط

اثنتا عشرة سنة
من الاستعباد



المؤلف: ماريا تير ميتلن/ المترجم: بوشعيب الساوري
عنوان الكتاب: اثنتا عشرة سنة من الاستعباد - رحلة أسِيرة هُولَندية في بِلاد المغرب
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: A. Malyukov / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480/ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097126447474/ فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com

ISBN: 978-88-85771-44-4



منشورات المتوسط
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

اختيارات جائزة ابن بطوطة - الرحلة المترجمة 2017 - 2018

ماريا تير ميتلن

اثنتا عشرة سنة من الاستعباد

رحلة أسِيرة هُولَندية في بِلاد المغرب

1743-1731

ترجمة وتقديم: بوشعيب الساوري

مكتبة | 295

يشرف على هذه السلسلة: نوري الجرّاح

المتوسط





استهلال

مكتبة عربية لأدب الرحلة، مَنْ كان يُصدِّق؟ موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرّحّالة مدوّنات، هي لوحات فنّيّة مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيّاضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيّات، حدسٌ شاعريٌّ، وابتكار فنّيٌّ وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع، ويُوقِظ الذاكرة، فيأتي بالمُمتع والمُدهِش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة، وزوايا لم تُستَكْشَف، يرتادها عاشق مغامر، كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها، وكأنه يتأمّل نفسه في مراياها، تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعياً وراء فَهْم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حَيّة عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

***

بدأنا برحلة، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة، أمّا وقد تجاوزتِ الكُتُب المائتَيْن، وتكاد تطوي صفحة المائة الثالثة، فقد تحوّل مشروع "ارتياد الآفاق" إلى مكتبة منظورة زاخرة بالمُؤَلَّفات.

إنني لأُحيِّي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة فرساناً امتطوا صهوات الجياد، واقتحموا غمار الموج، سالكين دروب الدهشة والخطر؛ وأتطلّع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرّحّالة المعاصرين، الذين واكبوا مشروع "ارتياد الآفاق"، وتألّقوا في مسالكه. أُطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكُتُب، وهي تنقلنا بين المُدُن والبلدان والقارّات، هؤلاء هم غوّاصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل. إنهم ثروة الأمّة من الناظرين في جهات الأرض كلها، وسفراؤها إلى العالم، العائدون بالرُّؤى والمعارف والخبرات، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر، بصفته أنا أخرى، وشريكاً على هذا الكوكب.

في أسواق المُدُن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطّات القطار نمرُّ بألوان من كُتيّبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السَّفَر. هذا شيء آخر غير أدب الرحلة؛ واليوم، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها، بل أفردت لها رفوفاً خاصّة بها.

الرحلة، كما آلتْ إليه، سفرٌ في الأرض، وسفَرٌ في المُخيّلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود.

***

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيّات أدبِ الرِّحلة، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكُتّاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ، جابوا العالم، ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنَيْنْ الماضيَيْنْ اللذَيْن شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة

الغربية لدى النُّخب العربية المثقّفة، ومحاولة التّعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عَزْل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً، ستملأ مجلّدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمُتهيِّئ لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة"، تغذّي أذهان الغربيّيْن ومُخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العامّ، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعلّ حَمْلَةَ نابليون على مصر، بتداعياتها العسكرية والفكرية كلها في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي، لتُؤسّس للظاهرة الاستعمارية، بوجهَيْها العسكري والفكري.

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكّن من تنميط الشرق والشرقيّيْن، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مُخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحْرِيّ والأيروسي والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبُّع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوُّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثّلة في التّطوّر الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرّحّالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشَغَف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة، لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من باب طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التّطوّر الحديث، واقتفاء أثر الآخر، للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد

العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المَدَنيَّة وحداثتها، من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كُتُب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحّالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يُشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادّة سرديّة مُشوِّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش، ممّا التقطتْهُ عيون تتجوّل، وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يُلمُّ بالأشياء، ويُحلِّلها، ويراقب الظواهرَ، ويتفكَّرُ بها.

***

أخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى أن هذه السِّلسلة التي شارفت اليوم على المائة كتابٍ أسّستْ، وللمرّة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة، تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعدادِه للمغامرة من بابِ نَيْل المعرفةِ مقرونةً بالمتعةِ، وهي، إلى هذا وذاك، تغطِّي المعمور في أربعِ جهات الأرض، وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مُكوِّنات الذات الحضارية للعرب والمسلمين، من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمُفكّرون والمتصوّفة والحُجّاج والعلماء، وغيرهم من الرّحّالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

***

ختاماً، أُحيِّي رَحّالة من طراز آخر، أولئك المثقّفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق، والعاملين فيه، والمتحلّقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية، بقدرات المغامرين من العلماء، ودأب المستكشفين، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها، كما يرجع الغوّاصون باللآلئ، وسهروا على فَكّ رموزها، وتحقيقها، وإخراجها إلى النور، ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة، ما تزال عناوينها تتوالى، وسلاسلها تتعدّد، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تُبرهِنَ، من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب، أنها ثقافة إنسانية، فتحت نوافذها على ثقافات العالم، وتجارب شعوبه، ودوّن رحّالتُها مشاهداتِهم وثائقَ أدبيةً وتاريخيةً، ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السَّفَر.

فهنيئاً للقارئ العربي الجادّ بهذه المكتبة الجديدة، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام.

محمّد أحمد السويدي




محمد خطاب

تقديم

ظلّ المغرب، طوالَ قرون عديدة، قِبْلَةً للرّحّالين الأوربيّينْ الذين دوَّن أغلبهم رحلاتهم، وكان جُلُّهُم ذكوراً، وكانت بينهم قلّة من النساء اللواتي تركْنَ شهادات مهمّة عن إقامتهنّ في المغرب كإديث وارتون وكوليت. لكن هذا الحضور النسوي كان محتشماً، ولم يُصبح ملحوظاً إلا في نهاية القرن الميلادي التاسع عشر، وتحديداً في فترة حضور ديرمانوند هاي ممثّل المملكة البريطانية في المغرب. وكانت أغلب الرّحّالات، في تلك الفترة، إنجليزيّات، لكنهنّ لم يبرحنَ مدينة طنجة وضواحيها. ثمّ في مرحلة لاحقة، بالنسبة للفرنسيّات، مع فترة الحماية الفرنسية على المغرب؛ يتعلّق الأمر بالرّحّالات الفرنسيّات اللواتي استدعاهنّ المقيم العامّ، ليوطي، ومَنْ تبعَهُ من المُقيمين الفرنسيّينْ،(*) مثل مادلين سان رين طايلانديي ورواينولد لادريت دولاشاريير وهنريت سلار.

لكنْ، قبْل هاتَينْ المرحلَتَينْ، من النادر أن نجد بين الرّحّالين عنصراً نسوياً، وحتّى إن وُجد، فيكون من الأسيرات، ويبقى منهنّ مَنْ كتبنَ شهادات عن أسرهِنّ قلّة قليلة جدّاً. ومن بين هؤلاء، نذكر الأسيرة الهولندية مارية تير ميتلن (Maria Ter Meetelen) (المزدادة سنة ١٧٠٤م وتاريخ موتها مجهول)(**) التي وقعت أسيرة على يد القراصنة

(*) Latifa Benjeloun-Laroui, les voyageuses occidentales au Maroc 1860-1956, Ed. La croise des chemins, Casablanca, 2014, pp.9-10.

(**) Maria Ter Meetelen, L'annotation ponctuelle de la description de voyage étonnante et de la captivité remarquable et triste durant douze ans : de moi Maria Ter Meetelen... le tout décrit selon la vérité et mon expérience personnelle / trad. du néerlandais par G.-H. Bousquet et G. W. Bousquet, MirandolleParis : Maisonneuve et Larose, 1956.

المغاربة، وخلّفت نصّاً رحلياً هامّاً عن مغرب القرن الثامن عشر، وما عرفه من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية صادمة في قالب رحلي قريب من السيرة الذاتية.

عن التّرجمة

كتبتْ ماريا تير متلن رحْلَتَهَا، أو قصّة أسْرها في المغرب، خمس سنوات بعْدَ عودتها إلى بلدها، وتحديداً سنة ١٧٤٨م. وبقي النّصّ مخطوطاً، إلى أن صدر باللغة الهولندية سنة ١٩٣٢م، وبعدها تُرجم إلى الفرنسية سنة ١٩٥٦م،(*) وهي النسخة التي اعتمدتُها في ترجمتي هذه، كما صدرت في طبعة إنجليزية سنة ٢٠١٠م. وبعْدَ انتهائي من الترجمة، اكتشفْتُ أن هناك ترجمة عربية لها(**)، لكنْ، حينما اطّلعتُ عليها، وجدتُ أنها ترجمة غير مُكتمِلَة؛ إذْ إن صاحبها تصرَّف في الترجمة، وحذَف ولخّص الكثير من الفقرات التي تتعارض مع المواقف الإيديولوجية التي يُؤمِن بها، بدعوى جعل النّصّ واضحاً ومفهوماً. يقول: "هاته الترجمة التي تصرّفْنا فيها حتّى يكون النّصّ واضحاً ومفهوماً وسلساً."(***) فجاءت الرحلة على شكل تقرير مُخْتصَر، وصاغ هذا التقرير الكثير من فقراتها بضمير الغائب، كما كان يُعلِّق على مواقف الكاتبة، وينتقدها داخل ما يُسمّيه "ترجمة"

---

*) كانت الأستاذة نجاة زروقي من جامعة الناظور قد أرسلت لي نسخة مصوّرة منها سنة ٢٠٠٩.

**) من تاريخ المغرب وحاضرته الإسماعيلية: قصّة الهولندية ماريا تيرمتلن Maria Ter Meetelen الأسيرة التي عاشت في مكناس العاصمة في النصف الأوّل من القرن ١٨، ترجمة ودراسة وتحقيق إدريس أبو إدريس، مطبعة فضالة، المحمّدية، المغرب، ١٩٩٦.

***) نفسه، ص٧.

محكي أحداث

من أهمّ سمات محكي مارية تير ميتلن أنها لم تُولِ أهمّيّة كبرى لوصف الأماكن والأشخاص، وربّما يرجع ذلك إلى طول مدّة أسْرها التي استغرقتْ اثنتَيْ عشرة سنة، كما لم تُولِ أهمّيّة كبرى للأماكن التي انتقلت بينها، إضافة إلى أنها زهدت في وصف الملوك والقصر والدَّيْر والمنازل التي تردّدت عليها، وإنما ركّزت على الأحداث الخاصّة التي ظلّت مُرتبطة بها وبمغامراتها ومشاريعها، أو على أحداث عامّة، عرفها المغرب كخَلْع الملوك، وتنصيبهم، ودور جيش عبيد البخارى في ذلك، والمجاعة والغلاء والطاعون، وهو ما جعلها ترصدُ جانباً مهماً من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، وانعكاسها على الحياة السياسية، والتي قد تبدو للقارئ أنها مبالغ فيها، لكن المصادر التاريخية المغربية أكّدتْها.(*)

المغامرة وفعل التشويق

وعلى الرغم من اللغة التقريرية التي ميّزت الكتابة عند ماريا تير ميتلن، فإن طريقة سَرْدها للأحداث طبعت محكيها بطابع تشويقي مغامراتي مليء بالمفاجآت، منحت النّصّ فتنة آسرة للقارئ؛ تُثير فصوله لمتابعتها من البداية إلى النهاية. إذ تبدو المغامرة والمخاطرة في هذه الرحلة في أقصى تجلّياتهما، مدفوعَتَيْن بالرغبة في إثبات الذات، وتخليصها من كل ما فُرض

*) ونخصّ بالذُّكْر هنا الجزء الأوّل من كتاب محمّد بن عبد السلام بن أحمد بن محمّد الرباطي الملقّب بالضعيف، تاريخ الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان، دراسة وتحقيق محمّد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ٢٠٠٧.

عليها من استعباد، وما تكبّدتْه من محَن، وكيف استطاعت مواجهة الأخطار البشرية كلها في سبيل إثبات ذاتها، ونيل حُرّيّتها، مُسْتعملة شجاعَتها حيناً، وحيلها حيناً آخر.

ثنائية المحنة والانفراج

وتبَعاً لذلك اختارت الكاتبة ماريا تير ميتلن بناء سَرْدياً قائماً على ثنائية المحنة والانفراج، إذ تجد الكاتبة نفسها عُرضة لمجموعة من المِحَن المتواصلة، إمّا طبيعية، تفرضها عليها الضرورة الطبيعية كالرياح والأمطار والرعود والبحر والأمراض والأوبئة والمجاعة، أو بشرية، وهي إكراهات من تدبير الإنسان الآخر، سواء أكان قريباً أو بعيداً، مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً، بدوافع عقدية أو دينية أو مصلحية. وكان يعقب كل محنة انفراج: إمّا نتيجة قدرتها على التّحمّل وصلابتها ورباطة جأشها، أو بفعل إصرارها وقوّة إرادتها، أو لحيلتها وذكائها، وبمساعدة الآخرين، وبشكل خاصّ ذوي السلطة كالملوك وأمّهاتهم وإخوتهم وأخواتهم والباشاوات وبعض التّجّار والمبعوثين الهولنديّيْن.

وتعكس هذه الثنائية عنصراً آخر، ساهم في البناء السَّرْدي لمحكيّها، وجعله مغرياً بالقراءة، وهو آلية التهويل؛ عبر تضخيم التجربة الذاتية، بإبراز ما عانتْهُ الكاتبة من محن وعراقيل وتعذيب ووشايات وإهانات، وكيف استطاعت مواجهة مصيرها، لتسمحَ لنفسها بالإعلاء من شأن أناها، وإظهار شجاعتها وصبرها وذكائها وإيمانها، وتأكيد دورها البارز في مُجريات الأحداث، وكيف استطاعت النجاح في المهمّات المستحيلة والصعبة التي فُرِضَتْ عليها، وكيف قاومت أهوال الطبيعة ومكائد الإنسان.

تنْويه

ولتيسير قراءة هذا العمل، أُنوِّه بأنني وضعتُ عناوين للفصول، كما وضعتُ عناوين فرعية داخلية. مثلما ذيَّلتُ المتنَ بهوامش توضيحية متبوعة بكلمة المترجم بين معقوفتَيْن تمييزاً لها عن هوامش الطبعَتَيْن الهولندية والهوامش الفرنسية.

شُكْر

وفي الأخير، يتوجّب عليّ التّقدّم بالشُّكْر الجزيل للصديق الباحث والمترجم المبارك لغروسي الذي لم يَبْخلْ عليّ بتوجيهاته القَيِّمة التي كان لها فضل كبير في خروج هذه الترجمة إلى حيّز الوجود.

بوشعيب الساوري / الدار البيضاء في يوليوز ٢٠١٦.




محمد خطاب

مقدّمة الترجمة الفرنسية

في سنة ١٧٤٨م صدر بهورن(*) كُتيِّب يحكي قصّة أسيرة هولندية في المغرب؛ هي ماريا تير ميتلن (Maria Ter Meetelen)؛ ولم يتمّ العثور على طبعة لاحقة له، كما أنّ الطّبعة الأولى لم تصدرْ إلا في سنة ١٩٣٢م بالمكتبة المَلَكيّة الهولندية للاهاي. وقد اعتمدْنا في ترجمتِنا هذه، على النّصّ الذي أعاد نَشْره كاملاً، السّيّد هـ. هردنبرغ (H. Hardenberg)، سنة ١٩٥٠م، والذي يعمل حالياً مسؤولاً عن الأرشيف المَلَكي بهولندا.(**)

ولا يَسعُنا إلا أن نتقدّم إليه بالشُّكْر الجزيل على ما أسداهُ من إفادات لعَملنا، الذي استشرناه فيه بشكل مفيد جدّاً. كما زوَّدنا أيضاً، نقلاً عن النّصّ الأصلي، بنصّ حادثة الخنزير، والذي لم يظهرْ في طبعته لسنة ١٩٥٠م.

أخبرَنا الناشر [الهولندي]، أن البطلة تمّ تعميدُها على الدّيانة الكاثوليكية يوم ٢٠ يونيه ١٧٠٤م في أمستردام(***)؛ وفي سنّ الثالثة عشرة، شرعت في التّجّول في أوربا؛ وخضعَت للتجنيد الإجباري مدّة من الزمن في كتيبة إسبانية. وتعرّضت للأَسْر في مكناس في الفترة الممتدّة من سنة ١٧٣١م

---

*) مدينة في الشمال الشرقي لهولندا. [المترجم].

**) Dans un recueil intitule, Tussen Seerovers en Christenslaven, Stenfert Kroese, ed. Leiden.[F]

***) يعني هذا أنها وُلدت سنة ١٧٠٤م. [المترجم].

إلى سنة ١٧٤٣م، وماتت في تاريخ مجهول، لا شكَّ ما بين ١٧٥٣م و١٧٧٤م في ميدنبليك. ولا يُعرَف أيّ شيء آخر عنها تقريباً.

محكيُها هذا مُدهش للغاية، ويمُكننا أن نختصرَه في جملة واحدة: مارية امرأة شجاعة، لم تفقد صوابها أبداً. بكل صراحة، تترك لنا قراءة محكيها انطباعاً بأنها كانت تتباهى بنفسها قليلاً، كما كانت تُجمّل محكيها أحياناً. فمن الصعب أن نقبَل بأنّها كانت فارسة سابقة في جيش ملك إسبانيا، ظلّت عذراء وهي في سنّ الرابعة عشرة. ونفهَم أيضاً أنّه، بفضل مكائدها، أصبحتْ ذات شعبية بين النصارى عموماً ومعشر الأسرى الهولنديّيْن على وجْه الخصوص. بل يحملنا على تفهُّم الأقاويل السّيّئة حول سُمعتها، بخصوص موضوع علاقتها الحميمة مع السلطان، والتي كانت تثير أكثر من علامة استفهام. ونحنُ لن نتمكّن من بلوغ الحقيقة أبداً حول هذا الموضوع، ولا عن العديد من التفاصيل الأخرى ذات الصلة. على أيّ حال، حتّى في نهاية محكيّها، صبّتْ حقْدَها على بعض مواطنيها، ممّنْ كانوا رفاقاً لها في الأَسْر.

ومع ذلك، يظل محكيُّها، على الدوام، مُفعَماً بالحياة، ومُثيراً للاهتمام، بشكل دائم تقريباً. وأترُك للمختصّين العناية بالكشف عن أيّ حقائق جديدة، يحملُها إلى معرفتنا بالمغرب في تلك الفترة المضطربة التي يتعلّق بها المحكي.(*) على كل حال، فمحكي أَسرْ في بلاد البربر(**) لامرأة، هو أمر نادر، إلا إذا كُنتُ مُخطئاً. وهو لهذا السبّب وحدَه، يَستحقّ أن يُترجَم، وأن يُنشَر.

لغة بطلتِنا هي بالأحرى حوشية، إذْ إنّ استعمال الضمائر فيها جدُّ

(*) H. Terrasse, Histoire du Maroc,II, p.282 et s.[F]

(**) يقصد المغرب. [المترجم].

بشع، وعلامات الترقيم غير مضبوطة. وقد كَتَب ليالسيد هاردنبرغ قائلاً: "أسلوب فظيع"، ومليء بالأخطاء، وغامض في بعض الأحيان. لقد قُمنا بتحسينه قليلاً في أثناء الترجمة، ولكنْ، ليس دائماً، حتّى نترك القارئ يُكوِّن فكرة بسيطة عن نواقصها؛ من حين لآخر، كنّا نعتقِد أنه من الضروري إدراج الإشارة (كذا): في أعقاب خطأ ما. إن هذا الإهمال وهذا اللانظام، هما، فضلاً عن ذلك، علامة على أصالة النّصّ.

لقد استعرتُ بعض الهوامش من الناشر الهولندي؛ وهي متبوعة بالإشارة (H)؛ والهوامش الأُخرى من وضعي. بدا لي من المناسب جدّاً القيام بتقسيم النّصّ إلى فصول عامّة جدّاً، لأنه لا يحتوي على أيّ تبويب. وعناوين الفصول تظهر بين قوسيْن، وذلك مساهمة منّا في تيسير قراءته قليلاً ما.

يتوجّب عليّ، في الختام، أن أتوجّه بالشُّكْر لأمّي، والتي، بعْدَ بلُوغِها خمس وسبعين سنة، لم تتردّد في أن تقدّم لي مساعدة، لا تُقدَّر بثَمن، والتي أوجزت إلى حدّ كبير مهمّتي الخاصّة.

ج.هـ بوسكيت /أكتوبر سنة ١٩٥٣، يناير ١٩٥٤.




محمد خطاب

الفصل الأوّل

تجوُّل في أوربا وزواج

يبقى مجْرى أمور هذا العالم باعثاً على الدهشة، وفيما سيأتي، سأحكي للقارئ [الكريم] واحداً منها، يخصّ مصيري الشخصي.

تجوَّلتُ خارج بلادي منذُ سنّ الثالثة عشرة من عُمري، ولمّا بلغتُ العشرين، قرّرتُ، رغم ذلك، القيام برحلة صغيرة عبْر فرنسا، متنكّرة في زيّ رجُل؛ وعلى تلْك الهيئة، وصلْتُ إلى إسبانيا، حيث اضطررتُ للالتحاق بفوج من الفرسان بالجيش، في مدينة، تُسمّى سيكتوريا (Sictoria).(*) لم أمكُثْ هناك مدّة طويلة، لأنّه، بُعيْد ذلك، كُشف أمري، وتبيّن لهم أنّني لستُ أنا هي صاحبة ذلك الاسم الذي سُجِّلت به. فأعدْتُ ارتداء ملابس نسائية، وتوجّهتُ بمعِية زوجة حامل اللواء إلى مدريد. وبعْد أن أقمْتُ بها مدّة يسيرة من الزمن، تزوّجتُ فيها في آخر الأمر يوم ٢٢ أكتوبر من سنة ١٧٢٨م بقُبطان هولندي، يُدْعى كْلاس فان دير مير (Klaas Van Der Meer)، وهو من مواليد مدينة ألكمار(Alkmaar).

نحو هولندا

كُنتُ قدْ بلغْتُ في ذلك الوقت الرابعة والعشرين من عُمري تقريباً.

---

*) فيتوريا إقليم باسكي بألافا.[H].

وبما أن زوجي كان متورّطاً في دعوى قضائية، بسبب باخرته التي أُعلن عن حَجْزها، أُجْبِرْنا على تأجيل سَفَرِنا، والذي تمّ، في آخر الأمر، يوم ١٥ يناير من سنة ١٧٣١م.

وصلْنا يوم ٢٧ من الشهر نفسه إلى كارمونا (Carmona)، التي تبعُد على الأقلّ بيوم من السَّفَر عن إشبيلية. ثمّ اكترينا منزلاً بتريانا (Triana) قُبالة إشبيلية، حيث أقمْنا إلى غاية يوم ٢٧ يونيو، حين تقدّمْنا بطلب الحصول على جواز سفَر بُغية العودة إلى هولندا. فحصلْنا عليه عبْر وساطة سفير البلدان السبعة المنخفضة المتّحدة(*) ومن الوزير الأوّل لجلالة الملك. وحين تبيّن لنا أن القضية لن تنتهي، ذهبْنا، إذنْ، إلى سان لوكار (St Lucar)(**)، الواقعة على بُعْد ميلَيْن من إشبيلية، من حيثُ ركبْنا يوم ٧ يوليوز من سنة ١٧٣١م قارباً صغيراً، وأبْحَرْنا على متْنِه في يوم ٨ يوليوز.

كاب فانسان

وصلْنا إلى كاب فانسان (Cap Vincent)(***)، حيث أبصْرنا سفينة،

---

*) تقصد جمهورية هولندا، وتُعرف أيضاً بجمهورية البلدان السبعة المنخفضة. وتُعرف اختصاراً بالمقاطعات المتّحدة. وهي جمهورية أوربية سابقة، استمرّت بين عامَي ١٥٨١ و١٧٩٥م في موقع المملكة الهولندية الحالية نفسه، والتي تعدّ نفسها وريثةً لتلك الجمهورية. كانت جمهورية هولندا من القوى العالمية الكبرى في القرن الميلادي السابع عشر، وهي تتألف من سبع مقاطعات في شمال هولندا، تمكّنت من أن تنال استقلالها من إسبانيا في الفترة ما بين ١٥٦٨ و١٦٠٩م، ونمت قوّتها تدريجياً عقب اتّحاد أوترخت عام ١٥٧٩م، والذي كان من أهدافه الأساسية تحسين المقدرة العسكرية لتلك المقاطعات الثورية. وهكذا بينما بقيت المقاطعات الجنوبية (لاحقا بلجيكا ولوكسمبورغ) خاضعة لحكم الإسبان، أصبحت المقاطعات الهولندية السبعة دولةً مستقلّة، بموجب اتّفاقية أوترخت. [المترجم].

**) توجد قرب مدينة قادس في إسبانيا. [المترجم].

***) يوجد جنوب البرتغال. [المترجم].

فاعتقدْنا أنها تركية [تقصد مغربية]. دعا زوجي القُبطان إلى شحْن مِدْفعه وبنادِقه؛ وكان ذلك المدفع يتكوّن من ثلاث قِطَع، تزن ثلاثة أرطال وثلاث بندقيّات ومدفعَيْن صغيرَيْن بَحْرِيَّيْن. وتمّ تهيِّئ تحصينات أيضاً، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بمعركة. إلا أن الرياح انقلَبتْ، وكنّا نتراجع إلى الوراء عوض أن نتقدّم إلى الأمام، حتّى إنّنا أُجبِرْنا على مغادرة الساحل البرتغالي المائل، وأبْحرنا مجدّداً. ازدادت قوّة الرياح مصحوبة بالأمطار، وساءت حال الجوّ، في ذلك المساء، حتّى إنّه كان لا بدّ لنا من جَذْب الأشرعة المتينة.

تعميدي أنا وكلبي

في تلْك الأثناء، خيّم حزن شديد على زوجي، وكان يودّ أكثر من مرّة أن يُنزِل الصاري، وسنكون حينها مضطرّين إلى العودة إلى كاب فانسان. وفي تلك الحالة، ستطأ أرجلنا اليابسة، ونُسافر برّاً إلى هولندا، لأن فكرة أن السفينة ستتعرّض للأسْر، كانت راسخة جداً في ذهنه.

انقلبَت الرياح مجدّداً، وسرْنا في اتّجاه هولندا، وهكذا وصلْنا يوم السبت ٢١ يوليوز [١٧٣١م] بالقرب من بارل (Berlingas)(*) على ارتفاع ٢٢ ميلاً. كان الجوّ في غاية الهدوء، وقد جرت العادة تعميد مَنْ لمْ يسبقْ له أن مرَّ من بارل. وبما أنّه لم يسْبق لي أن مررتُ منها، فكُنْتُ أنا وكلبي مُجبرَيْن على أن نُعمَّد. حينها أهديتُ كُلاّب خمر من أجلي، وأهديتُ ريكسدالين(**) من أجل كلبي حتّى ندخل بهذه الطريقة البهجةَ على طاقم السفينة.

---

*) أرخبيل برلينكاس هو مجموعة من الجزر الكرانيتية بعرض السواحل البرتغالية على المحيط الأطلسي. [المترجم].

**) ريكسدال عملة فضّيّة قديمة، كانت رائجة ابتداء من القرن السادس عشر في هولندا، ثمّ انتشرت في العديد من البلدان في شمال أوربا. [المترجم].

كان الوقت زوالاً، إذنْ، حين غادر نوتي الإشارة حراسته، وسيْراً على العادة، صعد حينَها رجُل في بداية الأمر إلى السارية، من أجل مراقبة ما إذا كانت هناك سُفُن في الجوار. كان شخصٌ ما صاعداً، لكنه لم يُبصِر أيَّ سفينة. في تلْك الأثناء، كان القُبطان ونوتي الإشارة قد نزلا إلى قُمْرة السفينة. وجدتُني فوق الممرّ الكبير، وكان هناك رجل في دفّة السفينة. وإذا برجل آخر يأتي من أجل القيادة. انتزع له قميصه منْ على جسْمه، ومزَّقه، ورماه في البحر. كُنتُ أنظر ملياً إلى ذلك، وكُنْتُ غاية في الاضطراب، على الفور، ظننتُهم المسلمين(*) الذين سرقوا ملابسنا. في اللحظة نفسها، جاء غسّال الصحون من غرفة المؤونة، وكان قد أنهى غَسْل أوانيه، وشرَع في التّطلّع إلى البحر على مقرُبة من عمود السفينة، فرأى سفينتَيْن.

بعْد ذلك نادى عليّ:

-"آنسة، آنسة(**)، ها هي ذي سفينة!"

قمتُ بعْد ذلك؛ لكي أراها. وعِوض أن نرى واحدة رأيْنا اثنتَيْن. واستطعْنا بصعوبة تبيُّن من أيّ نوع كانتا. توقّف قلبي عن النبض، لأنّهما كانتا، كما رأيتُ حينها، أنهما مغربيَّتان(***). ذهب زوجي ليُنذر القُبطان وموجّه السفينة اللذَيْن جاءا بعْد ذلك يحملان منظاراً. وبما أن الجوّ كان هادئاً تماماً، لم نكن نتقدّم إلا بصعوبة. واستطاعا حينها أن يلاحظا أن ذلك

---

*) استعملت الكاتبة كلمة (Turk)، وتعني بها تارة المسلمين، وتارة المغاربة، وتارة اللغة العربية، وقد وردت عدّة مرّات في النّصّ بصيغة المفرد والجمع. [المترجم].

**) إلى فترة قريبة، لم يكن يُطلَق اسم سيّدة (Madame) إلا على النساء المنتمين إلى الطبقة البورجوازية. [F].

***) استعملت الكاتبة كلمة (Turk)، وتقصد بها هنا مغربية. [المترجم].

الجوّ ليس ملائماً للإبحار، وكانت هناك معركة مندلعة، وهو ما تأكّد حين اقتربوا منّا. تلقّت السفينة المغربية ضربات شديدة من سفينة فرنسية، اعتقد المغاربة أنهم سيطروا عليها، لكن القائد المغربي كان غاية في المَكْر، ففوْر رؤيتِه لنا، أطلق سراح السفينة الفرنسية.

كانت الساعة تُشير إلى الرابعة بعْدَ الزوال تقريباً حين رآنا [المغربي]. نادى علينا طالباً منّا المجيء إلى سفينته على متْن قارَبنا مصحوبين بجواز سَفَرنا. أشار له قُبطانُنا، كي يعرف من أيّ بلد هو. فقال من الجزائر. وبما أنّه لم يكن هناك الكثير من البِيْض على متْن السفينة، اعتقدْنا أنه من الجزائر، مع قليل من الشّكّ في ذلك. شرع رجالُنا مُكرَهِين في إنزال قارب النجاة، في الوقت الذي انشغل فيه القبطان بالبحث عن وثائقه، لكنهم كانوا حينها جدّ مضطربين وخائري القوى، فلم يعرفوا كيف يُنزِلُون القارب بسرعة. تناولوا سكّيناً، وقطّعوا الحبال.

في تلك الأثناء، قرّر القبطان الدّفاع عن نفسه، وقام بتهيئة المدافع والبنادق، واستعدّ بما يكفي للمعركة. لم يكن الطاقم يبدو قادراً على الصمود كثيراً. فأنزلوا القارب، ورموا به ثلاث بنادق، وقليلاً من البارود من أجل الهرب؛ لأن السفينة لم تكن في وضعية تسمح لها بالدفاع عن نفسها ضدّ سفينة مغربية مزوّدة بعشرين قطعة مدفع، وتتوفّر على مائة وخمسين رجلاً، بينما لم نكن نحن سوى أحد عشر شخصاً، ستّة رجال وبحّار صغير وأربعة رُكّاب.

رفضي الهرب

حين رأى زوجي أنهم سيهربون، استعجَلَني بالإسراع إلى القارب. لكنني رفضتُ، إلا إذا وافق على الذهاب معي حينَها، وكان قَد فقَد صوابه إلى

حدّ بعيد، ولم يعُد يعرف ما يُقدِّم وما يُؤخِّر. أجابني أنه ليْس من حقّه مغادرة السفينة، وأنه يجِب عليّ أنا وحدي فقط الهرب، فقلتُ له أنا لا أريد ذلك. وإذا ما وقعْنا في الأسْر، سنكون معاً حينها. بيّن لي أنه خلال الأسْر سيكون من المستحيل علينا أن نظلّ معاً؛ فواحد منّا سيُباع في مكان، والآخر في مكان آخر، وسنفترِق. فلم يسْتطع، بالرغم من ذلك كله، إقناعي بالذهاب إلى القارب. فليس باطلاً ذلك المثَل القائل: "حين يريد اللهُ معاقبةَ بلد، ينزع الحكمة عن قادتها."

غادر قاربُ النجاة، إذنْ، بشرط أن يشير لنا بأن تلك السفينة المغربية ليست مؤذية. كانوا تسعة على متن القارب: مُوجِّهُ السفينة والطّبّاخون وثلاثة بحّارين وسائق معالي فان دير مير(*) كركّاب.

رأى المغربي ذلك، واعتقَد أن قارب النجاة كان متّجهاً نحْو سفينته. فما إن رآه يهرب، حتّى أخرج قارَبَه، وكان على متْنه عشرون رجلاً مُزوَّدين بالبنادق، وبما أنهم لم يتمكّنوا من اللحاق به بسرعة، كان ذلك في صالح القارب الهارب الذي استطاع حينها أن يبتعدَ كثيراً قبْل تمكُّن القارب المغربي من مُغادرة السفينة. وبالكاد ما استطاع القارب المغربي مغادرة السفينة المغربية حتّى أجْبرَنا المغربيّ على قيادة الأشرعة تحْت التهديد بإطلاق النار علينا.

اختباء

ظلّ زوجي والقبطان بجانب الشراع الكبير، من أجل إنزاله، وأنا كُنتُ خلفهما، على مقرُبة من الراية التي أنزلتُها. اعتقدتُ أنه من الأحسن لنا هذا

---

*) فرانس فان دير مير سفير بإسبانيا.[H].

بدَل تلقّي طلقات نارية، لأنّنا كنّا في وضعية، يستحيل علينا الدفاع فيها عن أنفسنا. وفوْر جَذْب الأشرعة والراية، جاء المغاربة وهم ينوون الصعود إلينا عبر مصادمة سفينتِنا. أرسلنِي زوجي في الحال إلى القُمرة. طوّقتُ كلبي بين ذراعَي، وتمدّدتُ على مقصورة النوم، وأغلقتُها؛ وأمسكتُ زمامها بيَد، وأغلقت فم كلبي باليد الأخرى. وصلتُ إلى هناك، بمجرّد ما صعد المغاربة إلى سفينَتنا، وانتزعُوا ملابس زوجي وملابس القبطان والركّاب، وعلى الفور، دخل زنجيّ إلى القَمَرَة ونهَبها بأكملها. وحينما سرقوا كل شيء ضربوا بشدّة زمام مقصورة النوم السفلية بحْثاً عن المزيد، لكنّي كُنتُ مُمسِكَة به بصلابة حتّى لا يتحرّك.

كُنتُ تركْتُ ثقباً صغيراً في زمام مقصورة النوم، أرى من خلاله ما كان يفعلُه الزنجي. لم يدخل أيّ شخص آخر غير ذلك الزنجي، ولم أسمع أيّ أثر للنصارى. اعتقدتُ أنهم فارقوا الحياة حينها. فقرّرتُ أن أترك نفسي أموتُ داخل مقصورة النوم السفلى إذا ما استطعتُ فقط التّخلّص من كلبي الصغير. لكنّني لم أتمكّن من إيجاد مخرج دون أن أكشف عن مخبئي. لم أكُن خائفة من أن أُقتَل على أيديهم، لكنّ ما كُنتُ أخشاه أساساً هو أن يغتصبوني. آثرتُ الموت على أن أقعَ ضحية بيْن أيديهم. لذلك ارتأيتُ البقاء مختبئة في مقصورة النوم السفلى حتّى أموتَ هناك.

اكتشاف مخبئي

بعْد مرور سويعة، سمعْتُ زوجي ينادي عليّ. وعنْد سماعي لصوته، أطلقتُ صرخة [مُدوّية]، وقفزتُ من مقصورة النوم، وأدركتُ الجسْر. سألني زوجي، الذي كان مندهشاً من صرْختي تِلك، ما إذا كانوا قد أساؤوا

إليّ. أجبتُهُ بالنفي، لأنه لم يكشف مخبئي أيّ واحد من المغاربة حتّى الآن، وهو ما أثار دهشة المغاربة الذين لم يكونوا يعرفون من أين خرجتُ. نزلوا على الفور إلى القُمرة، لكي يعرفوا مخبئي، فاكتشفوا المكان، ووجدوا الكلب الصغير وبعض الأشياء الثمينة وقليلاً من المال وجواهر لتزيين العُنق والرّأس وحِلي من ماس، أودعَتْها لديّ الدوقة ريبيردا (Ripperda)،(*) كي أوصلها لربيبتها(**) التي كانت صديقتي الحميمة، وأسلّمها لها شخصياً، لأنها لم تكن تثقُ بأحد آخر غيري.

نهب

استولى المغاربة على تلك الأشياء كلها. لذلك صعدتُ إلى الجسر، حيث وجدتُ زوجي والقبطان وواحداً من الركّاب كان يعمل طبّاخاً لملك إسبانيا(***)؛ وكانت الدموع تنهمر على خدود الثلاثة. ظلّوا هناك مثل مجرمين محكومين بالإعدام، بملابسهم التي مزّقها المغاربة. بعْد ذلك اقترب منّي المغاربة، كي يُلقوا نظرة. كُنتُ أشاهد تلك الكتلة كلها من الرجال بنظرة خاطفة، ثمّ تراجعتُ إلى الوراء قُرب ساق الدّفّة. كان يوجد هناك كيس كبير يحتوي على خزف صيني، أتى به القبطان من إسبانيا، كما وضعتُ به ملابسي الشتوية وألبسة داخلية وسُكّريّات، لم أستطع وَضْعها بصناديق الأمتعة. كان واحد من المغاربة قد اتّخذه (الكيس) مقعداً بعْدما استولى عليه. أوقفتُهُ، وأخرجتُ منْهُ ما كُنتُ في حاجة إليه، ثمّ تركتُهُ

---

*) سيّدة إسبانية، وهي الزوجة الثانية لخوان كيوم، الدوق ريبردا وزير أوّل سابق باسبانيا. [H].

**) ماريا نيكولتا ريبردا ابنة الزواج الأوّل للمغامر السياسي المعروف ريبردا. [H].

***) تقصد هنا الملك فيليب الخامس ملك إسبانيا (١٦٨٣م-١٧٤٦م)، كان أوّل حاكم من بوربون لإسبانيا ما بين سنة ١٧٠٠م و١٧٤٦م. [المترجم].

يجلس عليه مجدّداً، وكلّفتُهُ بحراسته، ووعدْتُهُ حينها بأن أعطيه شيئاً هامّاً. أخرجتُ حلوى مُعدَّة بالفواكه المُسكرة، وقدّمتُ له قطعة منها، وعُدتُ حينها نحو رفاقي محاولةً التخفيف عنهُم ما استطعْتُ.

استخفاف

أمّا أنا، فلمْ أكُن مُغتمّة، ولمْ أُذْرف أيّ دمْعة؛ دخلْتُ في حوار مع أولئك الناس، كما لو أنّهم لِيسوا أعداء. تبيّن لي أنهم أصعدوا حقائبي التي كانت تحوي ملابسي من عنبر السفينة إلا أنهم حطّموها بفعل الضرب. ناولتُهم المفاتيح، كي يفتحُوها بسهولة، لكنهم كانوا نافدي الصبر. فاستولوا حينها على ملابسي الدمقسية، وشدُّوها على أجسامهم العارية، وغطّوها بملابسهم الخاصّة وقاموا بالفعل نفسِه بكل أغراضي حتّى أفرغوا الحقائب. كُنتُ أتابع كلّ ذلك دون أن أذرف ولو دمعة واحدة. وكُنتُ أعتبِر قائلة في نفسي: "لله ما أخذ، وله ما أعطى. والحمد لله."

كُنتُ أتوفّر على أشياء أخرى، قِرْبتان إسبانيّتان من جِلْد، ونبيذ، يوجد في قمّتَيْهما أقماع خشبية، فلم يكن علينا سوى وَضْعهما في أفواهنا، لنشرب، وكان ما يزال يوجد بها النبيذ، رأيتُ المغاربة يستحوذون عليهما، ويشربون ما فيهما. فتوجّهتُ إليهم على الفور، وانتزعتُهما منهم، وحملتُهما إلى رفاقي، كي أشجّعهم قليلاً. كُنتُ أودّ أن يأخذوا هذا الأمر أيضاً باستخفاف مثلي، لكنْ، دون جدوى. لم ينلْ منّي الحزن، لأنني أعدّ نفسي جدّ محظوظة باحتفاظي بزوجي. غير أن هذا الأخير أثقلَ قلبي قليلاً حين قال لي عند وصولنا إلى بلاد المسلمين سيُباع كل واحد منّا، ولذلك سنفترق، ولن نتلاقى أبداً، لكنني لم أُصدِّق ذلك. وأجبتُهُ بأنّني لم أكن أريد أن أصيرَ بائسة من الآن.

استمالة القبطان

في المساء، بعْدَ غروب الشمس، عاد القُويرب الذي كان في إثر قارب نجاتنا، وبعد أن عرَف [المغاربة] على مقرُبة كم من شخص كان يوجد على متنه، نصَّبوا فوراً القبطان المغربي، لكي يتولّى قيادة سفينتنا، فرحّبتُ به مع ثناء كبير باللغة الإسبانية التي كان يفهمُها شأنه شأن بعض رجاله. والتمستُ منه أن يُرجِعَ لي قليلاً من ملابسي، فوعدَني بأن يبذلَ ما في وسْعه، كي يستردَّها، ويعطيها لي. وهو ما تمّ على كل حال فيما بعْد. بعْد ذلك، ردّ له أولئك الناس الذهب والمال والنقود كلها، وحِلِي أخرى، باستثناء بعض الملابس التي آثروا الاحتفاظ بها لأنفسهم.

وقوعنا في الأسْر

ثمّ أركبُونا قُويرِبهم، واقتادُونا إلى سفينَتهم. عنْد وصُولنا إلى هناك، سألوني عن محتويات السفينة، التي أخذوا علماً عنْها، ووعدُوني بأنّنا يُمكن أن نعودَ في اليوم الموالي إلى سفينتنا، وسيتأكّدون فقط ما إذا كانت جوازات سفَرنا مستوفية للشروط اللازمة. وكرّر بلا توقُّف:

- "فلامينغو (فلامانيون) الجوازات جيّدة، غداً سيكون في مُستطاعكم الذهاب."

لكنّني أدْركتُ تماماً أنه كان يستهزئ بنا. أعطاني على الفور كيساً جِلْدياً صغيراً، يحْوي تمراً وزبيباً وتيناً جافّاً، وقليلاً من خُبزهم الرقيق، لأكْلها، لكنْ، ولا واحد منّا كان يتوفّر على شهية الأكْل، باستثنائي أنا وحدي.

جوّ مُرْعب

بعْد ذلك، قادُونا إلى تحت جسْر السفينة، حيث بقي الضّبّاط. قدّموا لنا هناك قليلاً من عُدّة النوم أنا ورجالي، زربية وحُصر، كي ننام عليها. تحمّلْنا تلك الليلة عناء جوّ مُرعب رعديّ وماطر، جعلَنا نعتقد أنّنا سنغرق لا محالة، لأنّنا كُنّا نسبح داخل الماء. لمْ يقُم المغاربة بشيء آخر سوى الشّفْط والتّضرّع إلى محمّدهم [نبيّهم]. لم ننَم إلا قليلاً في تلك الليلة، إذْ لم يُغمض لي جفْن حتّى الفجر، حيث أغفيتُ قليلاً.

عَبَثُ المغاربة بملابسي

بدا لي أنّ الساعة كانت تشير إلى العاشرة تقريباً حين استيقظتُ. نظرتُ قليلاً حولي، وسِرْتُ على الجسر، حيث رأيتُ المغاربة يتبخترون، مُرتدِين أجمَل ثيابي، رأيتُ وزراتي الشتية (قُماش قُطنيّ خشن) المزهّرة والمطرّزة حول رؤوس أولئك الزنوج السود؛ كانوا يرقصون ويغنّون بانشراح مُحدثين صخباً شديداً. لبِس آخرون تنّوراتي الواسعة، وكانوا يرقصون بها، وفي الأخير، قطّعوها قطعةً قطعةً، ورموها للحيتان من فوق السفينة.

نظرْتُ مَليّاً حينَها منْذ لحظة في ذلك المشهد، وقد استولى عليّ الحُزن، وبكيتُ بمرارة. اندهش زوجي كثيراً من أنّني اعتقدتُ أنه سيموت. حاول ما أمكن مواساتي، لكنّه هو نفسه كان في حاجة إلى المواساة. فكّرتُ في ذلك كله، بشكل خاصّ، واعتقدتُ، غالباً، بأنّني لن أجني شيئاً بترْك نفسي نَهْباً للغَمّ، بل سأضرّ نفسي وجسمي معاً. وهدّأتُ قلبي، وتسلّيتُ، ما دمتُ على سفينة القراصنة، بالعزف على قيثارتي، وبالغناء.

عناية القبطان المغربي بي

اعتنَى القُبطان بي كثيراً، وكان يُحضر لي كل ما كُنتُ أرغب فيه، وكان يأتي بنفْسه أربع أو خمس مرّات في اليوم لرؤيتي، ويسألني ما إذا كُنتُ في حاجة إلى شيء ما. كُنتُ لا أرفُض أيّ شيء، وبما أن زوجي وباقي الرجال لم يكونوا يتلقّون أيّ طعام، كُنتُ أجلبُ لهم، إذنْ، في الليل ما كُنتُ أحصلُ عليه في النهار، وكانوا يأكلونه. وأحياناً كان القبطان يُرسِل لي في النهار زنجياً ومعه آلته الموسيقية، وفي الأُمسيّات كلها؛ من أجل تسليتي قليلاً، وكنّا نُحسن العزف كلّ واحد على آلته، وكنّا نُغنّي أنا بالإسبانية، وهو بالعربية، حتّى اللحظة التي وصلْنا فيها إلى قُبالة [مدينة] سلا، وقد تزامَن ذلك مع آخر يوْم من شهر يوليوز [١٧٣١م]. استدْعاني القبطان إلى قَمْرَتِه، وأراني الملابِس التي أعاد شراءها [من الطاقم] من أجلي بـ ٣٢ ريكسدالاً، ولم يكن يريد أن يردّها لي خوفاً من أن تكون، مرّة أخرى، عُرْضة للسّرقة من قِبَل الطّاقم، وإنّما سيُعيدها لي حين سنذهب إلى الملك.



الفصل الثاني

وصولنا إلى سلا

هكذا وَصَلْنا إلى [مدينة] سلا في آخر مساء من شهر يوليوز، وحَلَلْنا ببيْت الحاكم، حيث جاءنا التّجّار، وسألُوني على أيّ دِيْن كُنتُ. فقلْتُ:

- بروتستانتية.

لكن زوجي قال:

- لا.

وهو ما جعلني أخاف عليه، لأنّنا كنّا في بلد آخر، حيث لا داعي للخوف على الديانة الكاثوليكية. لكن ذلك ما كان، لأن أولئك التّجّار كلهم كانوا كاثوليكيّيْن، وبما أنّنا كنّا في الأسْر، ولأنّني كُنتُ أتحدّر من أبوَيْن كاثوليكيَّيْن، كان من غير الممكن أن أخفي أنني كُنتُ كاثوليكية. وكان زوجي على وشك أن يعاني، كما لو أنّه أقنَعني بتغيير دِيْني. علاوة على ذلك، كان من جهة أخرى، ما يزال بحوْزتي لباس التّرهّب، والذي كُنتُ قد أزحتُهُ سنة ١٧٢٧م، وما خدعني أيضاً، بحيث إن هذا كله كان مستحيلاً.(*)

طَوالَ مدّة إقامتنا بسلا، كنّا بخير نسبياً، ولم نكن محرومين من أيّ

---

*) هذا المقطع غير واضح، يعني أن المعنية لم تستطع إخفاء ديْنها، ولم يكن هناك أيّ داعٍ لذلك وأن زوجها، بروتيستانتي، سيخاطر بالمعاناة استجابة لرغبته في أن يتحوّل إلى البروتيستانتية.[F].

شيء تقريباً. وظللْنا هناك، إذنْ، إلى غاية ١٠ غشت، حين ذهبتُ في صباحه إلى القبطان الذي أعطاني كيساً ضخماً من الملابس، وفراشاً صوفياً، وغطاء قطنياً وحاضن ربع من النبيذ الأحمر، وزوجاً من الأقراط، وصليباً من حجر مزيّف، وحلِياً أخرى رخيصة.

الوصول إلى مكناس

حينها تمّ اقتيادُنا إلى مدينة مكناس التي وَصَلْنا إليها يوم ١٢ من الشهر نفسه [غشت]، مساء، حين جاء إلينا رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن. كُنتُ حينها متضايقة تماماً. قادُونا إلى بيت مغربي، حيث كان يتوجّب علينا البقاء مدّة أطول ما دُمْنا لم نمثُل بعْدُ أمام الملك، ومكثْنا بذلك البيت نحو أربعة أيّام.

نبوءة

كُنتُ حينها جدّ مريضة، فجاء الكَهَنَة الذين كانوا يقطنون هناك لزيارتي ومعهم طبيبُهم، وتكفّلوا بعْد ذلك، بكل ما كُنتُ في حاجة إليه. وعبَّروا لي عن مشاعر صداقة غامرة، لأنّني كُنتُ على دِيْنهم. إذ إنهم عملوا في اليوم الموالي جاهدين على أن أتمكّن من الإقامة في بيت امرأة إسبانية مع زوجها وأطفالها، عبْر التّوسّط لدى الباشا، حيث قادني رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن، وكان هو الآخر أسيراً هولندياً. وعلاوة على ذلك، قال زوجي:

-"إيه! جيّد مي، هل تحقّقَ ما كُنتُ تحلمين به، نسيتِهِ؟"

لكنْ، كما لو أنني سأتزوّج ذلك الرئيس، وهو ما حصل فيما بعد. كُنتُ حينها مريضة، وكان زوجي يتمتّع بصحّة جيّدة، فأوصى عليّ ذلك الرئيس قائلاً:

- "ابن بلدي، سأموت، أرجو أن تعتني بزوجتي، ستكون زوجة صالحة لكَ."

فأجابه الرئيس:

- "يا ابن بلدي، لا يجوز أن تتكلّم بهذه الطريقة. قريباً سنحصلُ على حُرّيّتنا، وسنعبُر الشمال الهولندي(*) على متنْ عربة، أنتَ وزوجتكَ، وأنا مع شابّة أخرى."

لكن ذلك كان بلا جدوى، ولم يتزحزحْ [زوجي] عن التأكيد على أنه سيموت.

في بيت إسبانيّة

وصلتُ، إذنْ، إلى بيْت المرأة الإسبانيّة، وحظيتُ فيه بحفاوة استقبال بشكل أفضل ما يتمنّاه المرء. فعلى الفور، كانت رهنَ إشارتي غرفةٌ بسريرها، وكل ما كُنتُ في حاجة إليه من طعام.

كان يتوجّب علينا أيضاً المثول بين يَدَي الملك، الذي اقتُدْنا إليه يوم ١٧ من الشهر نفسه [غشت] [١٧٣١م]. استعدْتُ حينها عافيَتي شيئاً ما، في حين سقط زوجي مريضاً، إذ كان من الصعب عليه الذهاب إلى الملك. وقبْل أن نذهب إلى الملك، كان من جملة ما أعاده إليّ القبطان، بعض حليِّي الفضّيّة والذهبية، وأيضاً خاتماً بياقوت أحمر وماستَيْن ودبابيس شَعْر، ومشابك تُزيّن الصَّدْرَ بها أحجارٌ كريمةٌ، لأنه كان يعتقد أن الملك

---

*) فعلاً توجد ميندبيلك في هذه المنطقة. لم نفهم هذا المقطع الغامض، ما إن كان يتعلّق بحلم أو حوار حقيقي.[F].

سيحتفظ بي لديه، وأنّني سأنعَم باحترام لدى الملك، وإنني سأُوصي الملك عليه.

كُنتُ في ريعان شبابي، ولم أكن قبيحة، وكُنتُ أبدو أصغر من سنّي، وهو ما دفع رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن إلى الاعتقاد بأنني فتاة تبلغ من العمر ١٤ سنة، بينما كان عمري حينها ٢٧ سنة. لأنه قال لزوجي:

- "مَنْ هذه الفتاة الصغيرة؟"

وحين أجابَه زوجي بأنني زوجته، وجد الأمر باعثاً على الاستغراب.

مقابلة الملك

وَصَلْنا، إذنْ، إلى الملك الذي أمعَن النّظر فينا، وأعادني، أنا وزوجي، إلى تلك الإسبانيّة، وأوصاها بضرورة الاعتناء بنا. وهكذا، تمّ إعفائي أنا وزوجي من الخدمة المَلَكيّة. بينما ظلّ قبطاننا والركّاب لدى الملك، وانكبّوا فوراً على العمل. إلا أنه سِيق بي إلى الباشا، وكان ينبغي أن أحصي كل ما كانت تحويه السفينة، وحتّى أُطمئِنَ القبطان تماماً، أغفلتُ الحديث عن بعض الأمور. وبعد أن قدّمتُ تقريري، توسّلتُ إلى الباشا، كي يَدَعَ القبطان حُرّاً طليقاً، وهو ما حصلتُ عليه. لكن ذلك لم يدُمْ سوى فترة قصيرة، لم تتجاوزْ ١٤ يوماً، إذّ إن الباشا لم يُنفِّذ ما وَعَدَ به تماماً.

مرض زوجي

أخذ مرضُ زوجي يتفاقم يوماً عن آخر، إذ إنّني لم أكن أنتظر شيئاً آخر

غير موته. كان يودُّ حينَها، بكل ما أُوتي من قوّة، أن يذهب إلى الدَّيْر، ظانّاً أنه سيكون أفضل هناك، هذا ما ساعدتْهُ عليه الإسبانيّة بصعوبة، حيث لا تدخله (الدَّيْر) أيّ جماعة أسرى، إن لم تكن إسبانيّة، وإن لم تكن كاثوليكية. وبما أن زوجي كان بروتستانتياً، فقد صعُب عليه الأمر. فقد تحمّلوا مع ذلك الأمر، آملين في فرصة لكسب شخص، ينضاف إلى دِيْنهم. فقَبِلُوه، إذنْ، في الدَّيْر، حيث مات في اليوم التاسع من دخوله إليه. ومع ذلك، بقيتُ في البيت، وكُنتُ أزور زوجي، كل يومَيْن تقريباً، حين كان يُرخّص لي بذلك.

حكايات للعِبْرَة

كانت تسكُن مع تلك المرأة الإسبانيّة والدتُها أيضاً، وكنْتُ أتحادثُ معها يومياً عن المغامرات كلها التي عاشتْها خلال استعبادها، منذُ أن كانت طفلة في سنّ الثامنة، والأمر نفسه، بالنسبة إلى ثلاث أخواتها، اللواتي صارت اثنَتَان منهنّ زوجَتَيْن للملك. وعن كل ما عانينَ منه: وأصبح واحد من أبنائها مسلماً، وآخر أُحرق وهو حَيّ. وأخبرتْني أنها أُجبرَتْ على الزواج بأمر من الملك، والكثير من الأمور المشابهة. كُنتُ أستمَع باهتمام كبير إلى تلك القصّة حتّى حفظتُها عن ظهر قلب، لأنني تمكّنتُ من الاستفادة منها في وقت لاحق.

وصيّة زوجي

في الصباح الباكر من يوم ٨ شتنبر [١٧٣١م]، ذهبتُ إلى الدَّيْر من أجل سماع القدّاس، وحين دخلْتُ إلى غرفة زوجي، ألفيتُهُ مثل جثّة هامدة.

غطّيتُهُ ثانية، لأنه، بسبب الظلام، لم أكن أستطيع رؤية ما ليس على ما يرام؛ لم يلفظ بأيّ كلمة. ذهبتُ حينها إلى الكنيسة جدّ حزينة، لأنني لم أستطع فعْل شيء آخر غير ذلك. حلّ النهار، شيئاً فشيئاً، وحين انتهت الخدمة بالكنيسة، عُدت إلى زوجي، واعتنيتُ به قليلاً بأغطية دافئة، وبأحجار ساخنة. ناولَه الطبيب دواءً منعِشاً وهو ما خفَّف عنه قليلاً، وشرع في الكلام. فكلَّف الكَهَنَة بكتابة وصيّته التي أمضاها بمشقّة كبيرة. وعيّن قبطاننا ورئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن شاهدَيْن، فوقّعا بدورهما على الوثيقة نفْسها التي ما زلتُ أحتفظ بها. وجَد أولئك الكَهَنَة صعوبة في جعل زوجي يُغيِّر عقيدته إلى الكاثوليكية الرومانية. ومع ذلك، واسيتُ زوجي قدْر المستطاع، وصلَّيتُ من أجله، وشجّعتُهُ قائلة إنه ينبغي عليه أن يضعَ ثقته فقط في أفضال المسيح فادِينا. وسنبلُغ النعيم بفضله؛ فالمسيح وحده، برحمته، يستطيع أن يُطهِّرَنا من خطايانا. تَلَوْتُ عليه الوصايا العشر، وشعار الإيمان لدى النصارى، وشعار أبينا، والمزمور ٥١ وأدعية أُخرى، وأيضاً من آلام السّيّد المسيح التي ردَّدها قدْر ما استطاع التّكلّم.

موت زوجي

ظلّ زوجي حينها مُغمض العينَيْن ساعتَيْن بالتمام والكمال، دون أن يتكلّم، وفي الأخير، فتحهُما بشكل جيّد، وبمظهر جدّ مرعب، جعلَني أهرَب من الغُرفة. وعلى نحْو متواصل، كان مثل الميت. لن أنسى ذلك التّغيّر المباغت للونه أبداً ما حييتُ. عُدْت حينَها، فوجدتُهُ كما لو أنّه يُطلق تنهيدته الأخيرة. كُنتُ وحيدة، وكُنتُ قد قضيتُ اليوم بأكمله بمفردي إلى جانبه، بيد أن الحزن الذي ألمّ بروحي كان كبيراً، وعلى الرغم من أنني

كُنتُ أوجَد في بلد غريب وأسيرة، ولستُ سيّدة نفسي، كما أنّني كُنتُ مهدَّدة بأن يتسلّمني الملك، التمستُ حينها من النصارى دَفْن الجثّة. وعُدْتُ بعدها إلى البيت، لتدبُّر ما ينبغي عليّ فعلَه. تضرَّعتُ إلى الله، كي يهبَني ما فيه خلاصي، وأن يُنقِذَني.

كُنتُ جدّ خائفة من رعايا باقي الأسرى من دول أخرى، بسبب غناهم، فقد يطالبون الملك بإيعاز من قُوّة مالهم، لكي يُسلِّمني إليهم. وهكذا كان ثلاثة قد طلبوا الزواج بي. لكنّني اتّخذْتُ قراراً وجيزاً، يقضي بأن أختار بنفسي مَنْ سأتزوّجه بمساعدة الكَهَنَة الذين كانوا هناك. كما توسّلتُ إليهم، كي يمدُّوا لي يَدَ العون في كل شيء.

صعوبة زواجي مجدّداً

لكنْ، كانت هناك صعوبة كبيرة، تتمثّل في عدم وجود أيّ كاثوليكي بين الأسرى الهولنديّيْن، وتبعاً لذلك كان من الصعب جدّاً القيام باختيار بينهم، إن لم يكن من بينهم مَنْ يريد الزواج بي، وعلى أتمّ الاستعداد لتغيير دِينه إلى الكاثوليكية، لأن الكَهَنَة أظهروا الكثير من الحرص على كاثوليكية مَنْ يريد التّقدّم لي. فكّرتُ:

- "هنا لا ينبغي الانتظار، بل ينبغي الاختيار بإلحاح، قبْل أن يهبَني الملك لمعشر أسرى أجانب."

في زوال يوم ٩ شتنبر [١٧٣١م]، قرّرتُ اختيار رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن(*) زوجاً لي، لأنّه بدا لي الأنسب من بين الهولنديّينْ كلهم،

*) هو بيتر يانسون ايد (Pieter JansZoon Ide) من مواليد مينبليك.[H]

وهو ما استطعتُ التّحقّق منه فعلاً فيما بعد. شاء القدر أن يأتي الكَهَنَة لزيارتي، فيما بعد زوال ذلك اليوم، ليُقدّموا لي العزاء في فقدان زوجي. وأتوني ببعض الأشياء التي احتفظ لي بها تُجّار سلا كانوا قد أرسلوها إلى الكَهَنَة. وهو ما ساعدني كثيراً على تدبير أمري، وساعدني على الحداد. اغتمنتُ الفرصة للتوسّل إلى الكَهَنَة، كي يُرخّصوا لي بالذهاب في اليوم الموالي إلى دَيْرهم، وتوسّلتُ إليهم أن يسْدُوا لي النصح في الأمور كلهم، وأن يساعدوني فيما وافقوا عليه باحترام، ووعدوني بأن يقدّموا لي يد العون ما استطاعوا، وهو ما خفّف عنّي كثيراً.

ذهبتُ، إذنْ، صباح يوم ١٠ من ذلك الشهر الجاري [شتنبر] [١٧٣١م] إلى الدَّيْر، وعرضتُ على الكاهن الأسمى ما أنوي فعلَه، فوافق عليه بشدّة. فالشّخص الذي كُنتُ أودّ الزواج منه كان رجلاً طيّباً، يحظى بتقدير بيْن النصارى والكَهَنَة كلهم منهم أساساً. لكنّه كان على دِيْن آخر، وكان هذا هو العائق، وإلا كان ينبغي عليه تغيير دِيْنه، وفي هذه الحالة: سيساعدونني ما أمكن. وإذا بكاهنٍ منهم كان حاضراً هناك قام وقال:

- "آ، بيتر، الفلاماني، شخص طيّب سوف يتغيّر كثيراً."

فكّرتُ:

- "هذا يلائمني جدّاً، سيكون على ما يرام."

وعدَني الكَهَنَة حينها بالإتيان بالرئيس أمامهم، ويرون ما إذا كان في مستطاعهم إقناعَه بتغيير دِيْنه إلى الكاثوليكية. عُدتُ بعْد ذلك إلى البيت.(*) ولم أكن قد تحدّثْت بعْدُ مع الرئيس، إذ كُنتُ أجهل ما إذا كان سيستحسّن الأمر أم سيستقبحه.

---

*) تقصد بيت الإسبانيّة، حيث كانت تقيم. [المترجم].

في ما بعْد الزوال ذاك نفْسه، جاء [رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن] عندي، وناقش معي الأمر. لقد كان فيما قبْل عنْد الكَهَنَة، وعنْدها جاء عندي. بل كانت لديه الرغبة في القبول، لكنْ، دون أن يُغيِّر دِيْنه. وبعْد أخْذ ورَدٍّ، قرّر في الأخير تغيير دِيْنِه، وهكذا يتزوّجني، لأنه لم يكن لديه أيّ وسيلة أخرى. وكُنتُ جدّ سعيدة بذلك. تبادلْنا الوعود بالزواج، وذهبْنا في اليوم الموالي لدى الكَهَنَة الذين كانوا جدّ سعداء، إذ حصلوا على هبة، قدرها مائة ألف ريكسدال. وعملوا ما في وسعهم لدى الباشا ولدى القوّاد المُلحَقِين بالملك، من أجل التّوسّل إلى هذا الأخير، ليبارك زواجنا، ويعمل على إبرامه، لأنه في الواقع، كان من المستحيل بالنسبة إلى النصارى الزواج في ذلك البلد، دون أن يَسمح الملك بذلك، لأنّنا، نحن الأسرى، كُنّا كلنا ذكوراً وإناثاً، مِلْكاً للمَلك.

مضايقات الإسبانيّة وزوجها

عُدتُ بعْد ذلك مباشرة مُطمئنّة إلى بيت الإسبانيّة التي كُنتُ أقيم عندها، على أمل أن يُدبِّر الكَهَنَةُ الأمور كلها، وكان يبدو أنهم كانوا يتمتّعون بحظوة لدى الملك وكُبرائه. أطلعتُ الإسبانيّة على أمري، وهو ما أغضبها هي ومَنْ في البيت. وكان زوجها جان كاطلانا (Jane Catallana) يذهب يومياً إلى قصْر الملك، ليقُوم بمهمّة توزيع البنادق على الجنود، واسترجاعها منهم، وليحرس مخازن الملك بمَعِيّة بعض النصارى. عاد ذلك المساء إلى البيت، وأخبرني أن ثلاثة نصارى تقدّموا إلى الملك بِنِيَّة الزواج بي، وكانوا يتوفّرون على أموال كثيرة. كان يعتقد أنّه يُسدي لي خدمة هامّة، لكنّني أجبتُهُ توّاً:

- إنني أفضّل هولندياً، ولو كان يملك فقط القميص الذي على ظهره على إسباني أو فرنسي بحوزته رأس مال ملكي.

استشاط غضباً، مع أنه لم يكن يعرف حينَها أين وصل أمري. ولكنْ، ما إن علم به عن طريق زوجته وأمّها، حتّى سبَّني هو وزوجته وأمّها بكلام فاحش، يُؤسف لسماعه، وبصقوا على وجهي بالهيجان نفسه. لكنني لُذتُ بالصمت، وتركتُهم يفعلون ما يشاؤون حتّى كَلُّوا. وبعد ذلك، بذلوا ما في وسعهم لإقناعي بكلمات ظريفة لتحمُّل الأمر، فقدّم لي صاحب البيت أخ زوجته، وكان طفلاً يبلغ من العمر ١٤ سنة، كان في منتهى البدانة. لكنني لم أذعن لهم، وذهبتْ مساعيهم كلها سُدَى.

حين رأوا أنني مُتمسّكة بأُمّتي الهولندية، اختلقوا لُقية أخرى. لقد كان يوجد يهودي بين الأسرى الهولنديّينْ، وكان يُقيم لدى باشا، ويتمتّع بحُرّيّة إدارة حانة، وكانت في حوزته ثروة. كانوا يريدون تزويجي من ذلك اليهودي، وهدّدوني بالباشا. فإذا ما قدّم له ذلك اليهودي حزاماً حريرياً فقط، وقليلاً من المال كهدايا، سيتمكّن من الزواج بي.

جاء صاحب البيت باليهودي، وكرَّر على مسامعي ما سبق، بأنّه يمتلك أموالاً طائلة، وإنّه إن تعلّق الأمر بالمال، فلديه الكثير من الأصدقاء الذين يُزوّدونه بمُدٍّ وصَاع، والمزيد. فقلتُ:

- "الموتُ أهونُ عليّ من الزواج برجُل آخر غير الذي اخترتُه.

فهدّدوني بالأشكال والطُّرُق كلها، لكنّني لم أرضخ لمساعيهم. بل استطعتُ تحمُّل أصناف الإهانات والتحقير كلها. وتعرّض رئيس معشر الأسرى الهولنديّينْ، هو الآخر، في غضون ذلك، لكثير من التعنيفات والإهانات والسخرية. ولم يستطع أيّ واحد منّا الذهاب نحو الآخر، كما كنّا نرغب، كي نحكي لبعضنا البعض ما جرى لنا؛ كان علينا تحمّل ذلك

من دون أن نتفّوه بأيّ كلمة. بيْد أن الكَهَنَة كانوا قد تمكّنوا في تلك الأثناء من عرْض قضيّتي على الملك، الذي استدعاني في الصباح الباكر ليوم ١٧ شتنبر [١٧٢١م].

حين علمتْ صاحبة البيت بذلك، انتزعتْ ثِيابي، بما في ذلك الملابس الداخلية، وألبستْني أسمالاً وقطعة نسيج يتلاعب بها الهواء، من أسمال على رأسي، كانت تتطاير حول أذني، وعبْر ثقوبها كانت تنفلت خصلات شَعْري. لقد تعمّدَتْ بذلك حتّى أظهرَ أمام الملك على هيئة يُرثى لها، لأنّني كُنتُ شابّة جميلة، حسب ذوق سكّان ذلك البلد. حملتُ قيثارتي وكلبي الصغير، وذهبتُ على تلك الهيئة إلى بيت الملك.

قادني جان كورني ليزون ديكرفانسفاك (Jan Corneliszoon Dekker Van Swaag) إلى القصر المَلَكي. فوْر وصولي، وجدتُ هناك جان كاطلانا الذي قال لي، بداية، إنّه تحدّث مع الملك، وقال له، إن تزوّجتُ بنصراني غير ذلك اليهودي سيقوم الملك بإعدامي. أجبتُهُ:

- إنّ الملك يستطيع فِعْلَ ما يريده، لكنّني لن أقبلَ زوجاً نصرانياً آخر غير رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن.

قال:

- إيه، حسناً، أتُفضِّلين الموتَ على الامْتثال لرغبة الملك؟

قلتُ:

- نعم.

حينها جاء مَخصيّ يبحث عنّي، وعلى الفور، قادني إلى الملك.

في الحريم

هكذا وجدتُني أمام الملك داخل غرفته، حيثُ كان مُضطَجِعَاً، وكانت توجد رفقته ٥٠ امرأة غاية في الجمال، مَطْلِيّات الوجوه، ولابسات كما معبودات ذوات جمال استثنائي، وكانت كل واحدة منهنّ تُمسِكُ بآلتها الموسيقية، وكنّ تعزفنَ عليها، وتغنّينَ لحناً غاية في الروعة، لم يسبق لي أبداً أن سمعتُ مثله. كانت أربع زوجات شرعيّات للملك جالسات قُبالته، كنّ تتلألأنَ ذهباً وفضّة ولآلئ معلّقة على أعناقهنّ تزنُ أرطالاً، وعلى رؤوسهنّ أحجار دقيقة وتيجان من ذهب، وكانت أذرعهنّ مليئة بأساور ذهبية وفضّيّة، وكانت سيقانُهنّ مطوّقة بخلاخل ذهبية، يزِن كل واحد منها بعض الأرطال. وحليهنّ المُطوِّقة لأعناقهنّ كانت تصل حتّى بطونهنّ، لدرجة أنني تساءلتُ كيف يَقدِرْنَ أن يُبقِينَ رؤوسهنّ مستقيمة بفعل ثقل كل ذلك الذهب واللآلئ والأحجار الكريمة. وكانت خواتم ذهبية مضفورة في شعورهنّ، محشورة في دوكات ذهبية.

كان الملك واضعاً رأسه على ركبَتَي واحدة من النساء ورجلَيْه على ركبَتَي امرأة أخرى، وكانت امرأة خلفه، وأخرى أمامه، كانتا تُداعبانه. أولئك أيضاً كنَّ تَرفَلْنَ في أفْخر الثياب، لكنّهنّ لم يكنّ مثل الأخريات. لذلك بدوْتُ أمام ذلك الترف كله كمُتسوّلة أو أرذل. بعْد ذلك، أوقف الملك الموسيقى، وأمرني بالاقتراب والجلوس، وطلب منّي العزف على القيثارة. لم أفهم أيّ كلمة ممّا قاله [الملك]، وإنّما ما أصدره من إشارات. عزفتُ ساعة من الزمن للملك، وهو ما أمتَعَهُ؛ كلَّمني، لكني لم أتمكّن من فَهْمِ قولِه. إلاّ أنّني فهمتُ في الأخير ما كان يرغبُ في معرفته، هل أنا فرنسيّة أو إسبانيّة أو هولنديّة أو إنجليزيّة، ومن أيّ بلد. وأنه ينبغي عليّ أن أدخل الإسلام، وحينها سأكون زوجته.

محاولات إكراهي على الإسلام

بعْد أن قَضيتُ لدى الملك وقتاً معتبَراً، جاءت امرأة، واستأذنت الملك، لكي تكلّمه للحظة، فأمَرَها بجَعْلي أدخل إلى الإسلام، وحين سيتحقّق ذلك، ستُلبسُني أفخَر الثياب، وستعيدُني إلى الملك.

لم يكُن لهذه المرأة عمل آخر سوى تزيين فتيات أبكار للملك، فكانت تُقدِّم له كل يوم جمعة فتاة بِكْراً.(*) بالإضافة إلى ذلك، أمَر بقدوم النساء الأخريات كلهنّ اللواتي سبَق له أن افتضّ بكارتهُنّ. ولم يكن يقرب مَنْ كنّ حوامل، لأنه كان بالنسبة إليه خطيئة أن يُقيم علاقة مع النساء الحوامل.(**)

أمسكتْني تلْك المرأة من يدي، وسارت بي عبْر عدّة ممرّات مُعتِمَة في القصر، حتّى وَصَلْنا إلى مكان آخر، حيث وجدتُ أربع نساء أو أربع شابّات أبكار، فالتحقتُ بهِنّ. كانت تُوجد بينهُنّ ابنة مُرتدٍّ، تعرف التّحدّث قليلاً بإسبانيّة رديئة، قالت لي: "إن الملك كلّفها لتُدخِلَني الإسلام. وسأرفَل حينها في أفخر الثياب مثل النساء الأربع اللواتي كنّ جالسات بجانب الملك، وإنني سأصبح خطيبتَهُ. وإلا سيقوم بإحراقي، وينتزع لحمي من جسدي بملاقط، ويعمل على جَعْلي أموت تحت أشكال التعذيب كلها." لم أفْهم شيئاً من ذلك كله، لكنّها أفهمتْني عبْر الإشارة. فأجبتُها، عن طريق الإشارة أيضاً، بأنّ الموت أهونُ عليّ منْ أن أصيرَ مُسلمة. حينما فهِمنَ ذلك منّي بصقنَ عليّ، وضربْنَني، وشتمْنَني. بعد ذلك، عُدنَ إليّ بمداراة ولطف، وألبسْنَني من ملابسهنّ الجميلة، ووضعْنَ التّاج على

---

*) ذكرني هذا بمحكي كُنتُ قرأته باللغة الإنجليزية، عن الشيء نفسه، بحريم سلطان القسطنطينية، حيث كان يتمّ الفعل نفسه كل يوم جمعة.[F]، والذي يعكس الصورة النمطية الإغرابية التي كرّستها الرحلات الأوروبية إلى الشرق.[المترجم].

**) الشرع الإسلامي لا يقول أيّ شيء من هذا القبيل.[F].

رأسي، وأشرْنَ إليّ أنّ الملك سيُلبِسُني أفخَر الثياب، وظَلَلْنَ مُفرّجات بين أصابعهنّ أمامي. ونطقْنَ بـ: "الشهادة." يعني الإيمان بمحمّد(*). ولكنْ، حين رفضتُ، انتزعْنَ من جديد تلك الثياب منْ على جسمي، وبصقْنَ عليّ، وشتَمْنَنِي مرّة أخرى. لكن ذلك لم يُرعبْني كثيراً.

صلاتي

بل كُنتُ أطلبُ عزائي من الله، لكنّني لم أستطع التّوجّه إليه بصلاة، وأن أضع نفسي في رعايته المقدّسة. كان لديّ أمل كبير بأن الله سيعينني كثيراً. حين ذاك أتاهنّ الطعام، من عنْد الملك، ابتعدْنَ عنّي، إذنْ، وجلسْنَ بقاعة كبيرة من أجل تناوُله. كنَّ يُرِدْنَني أن أنضمّ إليهنّ، لكنّني رفضتُ الذهاب معهنّ، لذلك ظَلَلْتُ وحدي في ذلك المكان، ممّا جعلَنِي أغتنم الفرصة للتّوجّه بصلاتي إلى الله. سقطْتُ على ركبَتَيّ، ووجهي مرفوع نحو السماء متوسّلة إلى الله بوَرَعٍ، والدموع تجري على خَدَّيَّ. تضرَّعتُ إليه أن يُلهمَني القُوّة، ويُدعِّمني بروحه القُدُس لمواجهة أفظع أشكال الموت، حتّى لا أتخلّى عن عقيدتي.

لم تكُن صلاتي طويلة، وفي أثنائها، شعرْتُ باطمئنان، لأنّ الخوفَ من الموت زال عنّي. صرتُ حينَها شُجاعة، وكُنتُ أُفضّل الموت على التّخلّي عن ديني مُعتبِرة أن أشكال الثراء تذروها الرياح مثل الدخان. وأدرتُ له ظهري بمَقْت، وكانتْ لديّ رغبة كبيرة في أن أُسلّم للموت كشهيدة في سبيل الإيمان بإلهنا المسيح. كانت روحي مُفعَمَة بالسعادة، بشكل أعجز

*) وهي نُطق الشهادتَيْن: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمّداً رسول الله، تعني التوحيد والإيمان بالنّبيّ محمّد. [المترجم].

عن وصْفه؛ على كل حال، كان فرحي أكبر ألف مرّة من القلق الذي تكبّدْتُه فيما مضى.

حيلة الحمل

بعْد أن أنهتِ النسوة أكلَهُنّ، عُدنَ إليّ، كي يُقنعْنَني بالدخول إلى الإسلام، لكنّني صرتُ أكثَر صلابة، أبعدتُهنّ عنّي، وأشرتُ إليهنّ:

- "أليس لَكُنّ شُغلٌ آخر غير قَطْع عنقي؟ إنني أُفضّل الموت على أن أصيرَ مسلمة."

فاعترتْهُنّ دهشة كبيرة من تجرُّئي على إبعادهنّ ببسالة. شتَمْنَنِي بجُرأة، وبصَقْنَ عليّ. أخذتْ معدتي تُؤلمني، لأنني لم أتناول أيّ طعام، ووَلّدَتْ لديّ رائحتهنّ الكريهة، بسبب إحاطتهنّ بي عن قرب، الرغبة في القيء، لكنّني لم أستطِع. كان بعْد الزوال قد حلّ حينها، عندما أتينَ لي بقليل من الحليب والخبز، لكنّني امتنعتُ عن تناوُلهما. وعملتُ جاهدة على جعلِهنّ يقتنعْنَ بأنّني حامل، رغْم أنّني لمْ أتمكّن من ذلك سوى عبر الإشارة. لاحظتُ أنّهنّ أخذْنَ يُشفِقْنَ عليّ، ومنذُ تلك اللحظة، لم يشغلْنَ بالهُنّ بي أبداً.

كُنتُ أتحينّ، إذنْ، الفرصة للمثول بين يَدَي المَلِك الذي كان ما يزال مستغرقاً في النوم حينها. اجتزتُ مجدّداً رُفقة أولئك النسوة الأروقة الطويلة المُعتمة إلى غاية المكان، حيث توجد القاعة المَلَكيّة، وتظاهرتُ بأنّني مازلتُ مريضة. كان يوجد هناك واحد من المَخصيّيْن المَلَكِيّيْن، وهم خلاسيون، يتولّون حراسة حريم الملك داخل بيته. كان ذلك المَخصيّ

يَعرف قليلاً من اللغة الاسبانيّة، فسألني ما بي. قلتُ له إنّني حامل. وإنني أودّ العودة إلى إخوتي [النصارى] لأنّني لستُ على ما يُرام. تحدّث حينها إلى أولئك النسوة اللواتي كنّ قريبات منّي، قبْل أن يُجيبَني، ثمّ قال إن الملك كلّفهُنّ بمهمّة إدخالي إلى الإسلام قبْل أن أُساقَ إليه. تظاهرتُ بأنّني أعاني كثيراً، لأنّني لاحظتُ أن النسوة بدأنَ يُشفقنَ من حالي، وازداد ذلك حين علمْنَ بحمْلي، مع أنني لم أكُن كذلك. فلم يهتمن بـ [إدخالي إلى الإسلام] أبداً، جلسْنَ قُربي، وأظهرنَ لي السماء، وكأنهنّ كُنّ يُردْنَ أن يقُلنَ لي:أعانكِ الله.

المثول بين يَدَي الملك

لمْ ألبثْ هناك مدّة طويلة، وحين خرج الملك من قاعته، أمسكتْني النسوة واحدة من ذراع، والأخرى من الذراع الأخرى، وحملت الثالثة كلبي الصغير، وفيما حملت الرابعة قيثارتي، واقتدْنَني على تلك الحال إلى الملك. كُنتُ حينها غاية في الرضا بأن أنتهي إمّا إلى الموت أو التّحرّر. لكنْ، بما أن الله بيده كل شيء، أنقذني من بين أيديهم. ركعتُ حينها دون خوف أمام الملك. لم أكنْ أنتظر شيئاً آخر غير ضربة قاتلة منه. دفعَني، فقمتُ، وجريتُ نحوه، وركعتُ للمرّة الثانية أمامه، وتوسّلتُ إليه أن يتركَني بالقرب من إخوتي [النصارى]، دفعَني من جديد، فقمْتُ حينَها للمرّة الثالثة، وجريتُ نحوه إلى غاية البوّابة من حيث سيخرُج، وارتميتُ مجدّداً تحْت قَدَمَيْه، وقلتُ:

-"قَطْعُ رأسي أهْوَنُ عليّ من أن أُصبحَ مسلمة."

لاحظ الملك ثقتي بنفسي وشجاعتي كلبؤة، وبما أنّني حِلْتُ دون خروجه من قصره، نظر إليّ بعينَيْن مخيفتَيْن جدّاً، وتوقّف، وتوجّه في الأخير إلى النسوة اللواتي كنّ يخفُرْنَه، وأساساً إلى النساء الأربع اللواتي اقتدْنَني إليه، فقُلنَ له حينها إنني حامل، ولم آكل طوال النهار، وأعاني كثيراً، وإنّني من حين لآخر كُنتُ كما الميتة، وأستعيد الحياة من جديد، وتوسّلنَ للملك بأن يتركَني أذهب إلى حال سبيلي. لم أستطِع فَهْمَ ذلك. وإنّما بعد أن تعلّمتُ اللغة [العربية]، وبعْد أن تردّدتُ على البيت المَلَكي، كان ذلك ما حكينَه لأخت الملك في حضوري. واستطعتُ، مع ذلك، أن أدرِك أنهنّ كنّ في صفّي.

عفو الملك

بعد أن استمع الملك لكلام النسوة، التفتَ إليّ، وقال لي إن أربعة رجال أتوا من أجلي، بهدف أخذي إلى إخوتي. قال ذلك بالإسبانيّة، إذ استطعتُ فَهْمَ كلامه جيّداً، وحينها قُمْتُ فوراً، وسمحتُ للملك بالمرور.

شرعَت النسوة، على الفور، في التعبير عن فرح كبير، بإطلاق زغاريد الابتهاج، وعبّرنَ لي عن طريق الإشارة بأنّه ينْبغي عليّ أن أُعاودَ زيارتهنّ. تظاهرتُ بالموافقة على كل شيء. وكُنتُ أقول في داخلي: لو خرجتُ من هنا، فلن أعود قريباً.

كُنتُ جدّ محظوظة حينَ استطعْتُ التّخلّص من ورطة حتّى ذلك الحين. لكن النّصارى كانوا جدّ قلقين ومُشوّشي البَال عليّ، مُعتقدِين أنّني صرتُ حينَها مسلمة. وبشكل خاصّ أولئك النصارى الذين كُنتُ أقيم في بيتهم، لأن صاحب البيت كان يخشى أن تُجبرَ زوجته على الذهاب يومياً إلى القصر من أجْل تعليمي اللّغة [العربية]، لأنها رأت النور في ذلك البلد،

وأنّها تعرف اللغة أكثر من المسلمين [المغاربة]. لذلك عانى النصارى والكَهَنَة كثيراً حين رأوا الملك قادماً، وليس أنا. استغرق ذلك نصف ساعة قبْل ذهاب الملك، قبْل أن يأتِي مَخْصيّ يطلُبني، وقادني إلى النصارى.

بمُجرّد ما خرجْتُ من بيت الملك، أبصرتُ من بعيد جيشاً حقيقياً من الحَرَس المَلَكي مسلّحاً، ولم يبدُ لي بينهم أيّ أحد من النصارى. فقلتُ في داخلي حينها:

- "ماذا ينتظرني! الآن سأُقتَل.

لأنّه لا ثقة في الملك، خصوصاً وأنه كان طاغية، وبالنسبة إليه قَتْل ١٢ نفراً قبْل الفطور شيء عديم الأهمّيّة. اقتربْتُ حينَها من الحَرَس، وجاء كاطلانا، وانتزعَني من المَخصيّ وهو يتفوّه بكلمات قبيحة شاتمة. فوْر رؤيته: كُنتُ جدّ سعيدة، كما لو أنهم منحوني حُرّيّتي. أمْسكني بيدِه، واقتادني، أمام الحَرَس المَلَكي كله، إلى غاية الغُرفة، حيث يقطن النصارى المُكلّفون بحراسة الخزائن المَلَكيّة. وأغلق عليّ داخلها. تزامن ذلك مع غروب الشمس حين كانوا يقومون بجَمْع الأسلحة.

في غضون ذلك، جاء رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن، ليسألني عمّا حدَث لي لدى الملك. فقلتُ له باختصار:

- "إنّني كُنتُ قُدِّمْتُ [لدى الملك] على أساس أن أُصبِح مُسلمة، لكن الله نجّاني."

لأنّه كان من الصعب عليّ أن أحكي له كل ما وقع بتفصيل. فقال لي:

"إن كل مَنْ كانوا يوجدون بالمستودع المَلَكي، من نصارى ومسلمين على السواء، كانوا يتصوّرون أنكِ صرتِ مُسلمة، وأن جان كاطلانا كان

جدّ خائف." لأن زوجته كانت ستُعرَّض لخطر القدوم كل يوم إلى القصر، لتُعلّمني اللغة [العربية]، وكانوا جدّ مُغتمّين، ليس بلا سبب. لم نستطع مواصلة الحديث، لأن رئيس [معشر الأسرى الهولنديّيْن] كان يتوجّب عليه مساعدة النصارى في جَمْع الأسلحة.

بقيتُ حينها وحيدة في تلك الغرفة، واضعة اعتقادي في الله، وتوجّهتُ إليه شاكرة إيّاه على عفوه الذي شدّ من أزري، لأنني آثرتُ الموت الفظيع على أن أُصبِح مُسلمة. وبمُجرّد ما أنهيتُ صلاتي، نُودي عليّ مجدّداً، لأمثُل بين يَدَي الملك، فذهبْتُ إليه كما يحلُو لي دون أدْنى خوف.

عزف

وجدتُ نفسي مجدّداً قُبالته [الملك]، وذهبتُ للجلوس أمام باب غُرفته من أجْل العزف على القيثارة، بينما كان الملك، مرفقاً بإخوته والباشا، يأكل، بالداخل، البطّيخ الأحمر. كان في تلك اللحظة جدّ سعيد ومُبتهجاً، مع مرافقيه، وهو ما منحنِي مزيداً من الشّجاعة، من أجل بلوغ هدفي.

موافقة الملك على زواجي

بعْد أن عزفْتُ مدّة من الزمن، أوقفَني الملك، وقال لذلك النصراني الذي اقتادني إليه أن يَسألني عمّا أرغَب فيه. فأجبتُهُ بأنْ يُبلِّغ الملك أنني أرغب في الزواج من رئيس معشر الأسرى الهولنديّيْن، بيتر. نطقتُ حينها اسم الرئيس حتّى لا يخدعني ذلك النصراني لدى الملك، لأن ذلك كان ضدّ رغبته. أجاب، إذنْ، باسمي الملك بأنني تضرّعتُ إلى الله وإلى سيّدي حتّى أستطيع الزواج بواحد من أبناء بلدي. قال الملك:

-"آتوني به."

وبما أنّ الملك كان قد ميّز بشكل جيّد، فيما قلتُهُ اسم بيتر، وعلى الفور مثُل بين يَدَيْه الحاجب، وسأله إن كان يذكر جيّداً بيتر. أجابه:

- نعم.

وسأله:

- هل هو هولندي؟

فأجابه: نعم.

وأكّد له أنه يرغب في اتّخاذي زوجة له. وأضاف:

- "إذا كان ذلك يُرضي الله وجلالته."

قال الملك بناء عليه ثلاث مرّات:

- "سأُعطيها له، وينبغي عليه أن يعتني بها"

لم أفهم شيئاً من ذلك الحوار، لأنّ الحاجب كان واقفاً ورائي، شكَر الملك، وكان يستعدّ للذّهاب حين نادى عليّ، لكنّني لم أسْمعْه. برُؤية الملك له صاح:

-"تعالَ إلى هنا، بيتر."

وهو ما تمّ على الفور. وقال له الملك ثلاث مرّات:

- "أمسِكْها من يدها."

أمسكني من يدي، فسحبتُها حينها على الفور. فأمْسكَ بيدي مرّة

ثانية، وقال لي: إن الملك وهَبَني له. التفتُّ حينَها، ورأيتُ أنّه كان في حالة حسنة ذلك الذي كُنتُ في حاجة إليه، نسيتُ الملك تقريباً، وذهبتُ دون أن أشكُرَه، من فرْط سعادتي الغامرة. وهكذا ذهبْنا معاً إلى تلك الغُرفة، حيث كان يُوجَد، أيضاً، الباشوات وشخصيات سامية أخرى. ظَلَلْنا هُناك إلى حين عودة الملك إلى بيتِه.

زواجي الثاني

كانت الشمس قد غرُبتْ، حين غادَرْنا ذلك المكان، متوجّهين إلى دَيْر الكَهَنَة، حيث تزوّجْنا على الفور. لكنْ، قبْل أن نتزوّج، كان ينبغي على زوْجي أن يُعمَّد إلى الكاثوليكية، لأنّ الكَهَنَة لم يكونوا يؤمنون بأن البروتستانتيّيْن أو اللوثريّيْن مُعمَّدون. نعم، لقد تجرّؤوا على القول إن المسلمين أحسن من البروتستانتيّيْن أو اللوثريّيْن، لأن المسلمين، حسب قولهم، يؤمنون بالله، وهذا ما لا يفعله البروتستانتيّون واللوثريّون.

قالوا في حقّهم الكثير من الأكاذيب المُرعبة والآثام، وذلك جدّ مُرعب، لا داعي لإعادة ذِكْره هنا.

أقاويل

هكذا تمّ زواجنا حسب عادات ذلك البلد، ثمّ ذَهبْنا إلى بيْت جان كاطلانا، حيث قُدِّمَتْ لنا وجبة عُرس كبيرة جدّاً، مع ستّ بيضات وخُبزة صغيرة، أكبر قليلاً من قُرص سنْتَين عندنا. وبعد ذلك، ذهب زوجي الجديد إلى بيته، وظَلَلْتُ حيث كُنتُ، وتحمّلتُ تلك الليلة أبشع أشكال

السباب والإهانات من ذوي البيت، أكثر ممّا أحتمل، لأنّني لم أذعنْ لإرادتهم، وهو ما كان يتفاقم يوماً عن آخر. حاولوا أن يشعلوا النار بيني وبين زوجي، لكن ذلك لم يتأتّ لهم أبداً، لأنني كُنتُ أكثر دهاء، بالنسبة إليهم. من الجهات كلها، لم يكنْ هناك سوى الأشواك واللاذعين، الذين لَسعُونا بطريقة لا تُوصف. سأقتصر على تقديم بضع أمثلة فقط.

لقد حرَّضوني ضدّ زوجي، قائلين لي بأنني لم أتزوّج سوى بكسول، اختار الزواج منّي، كي لا يُجبرَ على العمل، وحتّى يكونَ له الكثير من الفرص للذهاب إلى البنات، كما قالوا إنه يتوفّر على المال، لكنه كذب عليّ. وأحضروا لي شهود زُور، أكّدوا لي ذلك، وأقسموا بيمين كاذبة. لكنّني ظَلَلْتُ مشكِّكَة جدّاً في أقاويلهم كلها، لأنني لا أُصدّق إلا ما رأيتُهُ أو أحْسسْتُ به. على الرغم من كل ما نصبُوه لي من حِيَل وخُدع. كان ذلك بلا جدوى. فغضب جان كاطلانا قائلاً:

-"أنتِ قادرة، بفضل ذكائكِ، على بَيْع العالم بأكمله."

فبسبب زرعهم للأعشاب الضارّة كلها لم يحصدوا أيّ ثمار كما كانوا يتوقّعون. عِلماً أنني تكبّدْتُ سماع الكثير من القَرَف عن زوجي، كي أركلَهُ وأتخلّص منه. وقالوا لزوجي إنني أقوم بأعمال غير شريفة، لا تليق بزوجة محترمة.

الفصل الثالث
نهاية الولاية الأولى لحكم مولاي عبد الله
١٧٣١-١٧٣٤

البحث عن بيت

يُمكن للقارئ الكريم أن يتخيّل كيف كانت حالتنا النفسية، في بعض الأحيان، أنا وزوجي. كان كل واحد منّا غريباً عن الآخر، لم يسبق لنا أن عرفنا بعضنا البعض من قبْل، كما لم يسبِق لأيّ أحد منّا، أن سمع عن الآخر، ولا عن عائلَتَيْنا. كنّا مثل عصفورَيْن غريبَيْن، لا يعرفان من أين أتيا، ولا أصلهما، كما لو أنّنا سقطنا من السماء. كُنتُ أرغَب مراراً في ألا أظلّ في ذلك البيت، وأن أذهب للسَّكَن مع زوجي وحدنا. لكنّه كان يعدم الوسيلة.

إقامتنا في إسطبل

بعد مرور ثلاثة أشهر، زُرت أنا وزوجي يهودياً، ذكرتُهُ آنفاً، كان يقطُن لدى الباشا. اشتكيتُ له من كلّ ما تكبّدتُهُ من معاناة في بيت ذلك الإسباني، وطلبتُ منه إن كانت هناك إمكانية لأن أجد بيتاً للكراء، كيْ أسكنه، لكن الفرصة لم تأت. كان زوجي يدير حانة(*) داخل إسطبل وسط الحيوانات، وكانتْ رائحتها كريهة مثل أسوأ الإسطبلات التي كانت تبدو كقصر بالمُقارنة

---

*) كما هو معلوم جرت العادة في المُدُن البربرية بالسماح لغير المسلمين ببَيْع الكحول، يُنظر بالنسبة للجزائر التركية، إيزنبت المجلّة الإفريقية، ١٩٥٢، ص٢٤٧، وبالنسبة لفاس، قبل احتلالها الفرنسي، يُنظَر موليبراس، فاس، ص١٩٦ و٢٤٧.[F].

معه، إذ إنّ زوجي لم يكن يُريدني أن أدخل إليها. فألححْتُ كثيراً عليه بأن أزورَ تلك الحانة، ومع تماديّي في الإلحاح، قرّر أن يصطحبَني معه إليها.

هكذا وَصَلْناها، فوجدناها في حالة بئيسة جدّاً، ومع ذلك، قرَّرتُ للتّوّ البقاء بها. كان زوجي يُعارِض الفكرة بشدّة، إلا أنّه لم يستطعْ مقاومة رغبتي. كُنتُ أوثر العيشَ بسلام داخل حُفرة مُقْرِفة، وأن أقتات بالخبز اليابس، أو ما أراد الله أن يمنحَنا إيّاه، على ذلك البيت الإسباني، حيثُ كُنتُ آكل بلا اهتمام، وإنّما وسط المشاجرات. ظَلَلْتُ مُتشبّثة برأيي. فذهب زوجي، على الفور، إلى البيت الإسباني لجَمْع أغراضي كلّها. لم يكن لي أنا وزوجي أشياء كثيرة، ورضينا بتلك العيشة المتواضعة. لكنّ الله أعاننا، وما يزال، إذْ إنّه قبْل حلول أعياد ميلاد السنة [١٧٣٢م] نفسها، أرسل لي سعادة السّيّد فرانز فان دير فار مير(Frans van der Meer)، السفير الهولندي بالقصر الإسباني، ٥٠ ريكسدالا(*). فحظي ذلك المبلغ بترحيب كبير، لأنني كُنتُ حاملاً بابْني الأوّل، وكُنتُ في حاجة إلى كل شيء، وكان الكلّ مُكلّفاً، ولم نجنِ ما يكفي من أجل البقاء على قيد الحياة.

الحصول على بيت

أقمْنا في ذلك الإسطبل إلى غاية نهاية شهر أبريل من سنة ١٧٣٢م، حين عادت أمّ الملك من حجّها إلى مكّة، حيث دُفن محمّد(**) حسَبَما قالت. وقد تزامن ذلك مع وصول تاجر فرنسي سفيراً إلى سلا ومعه هدية لافتداء الأسرى الفرنسيّيْن. فوقَع عليّ الاختيار لحَمْل تلك الهدية، وتقديم طلب التحرير، إلى الملكة [أمّ الملك]، وكانت تلْك فُرصة مواتية

---

*) في الثالث عشر من أبريل ١٧٣٢م، كتبتْ إليه ماريا تير متلن رسالة، بعثتْها إلى الدول العامّة، والتي تمّ الاحتفاظ بها هكذا، وقد وجدنا فيها بشكل مختصر ما هو معروض هنا بتفصيل.[H].

**) نحن نعلم جيّداً كيف أن هذا الخطأ شائع.[F].

لتهنئتها بالمناسبة، وكُنتُ مصحوبة بأستاذة للّغات تُساعدني. وكُنتُ كتبتُ التماساً، هنّأتُ فيه الملكة، وتوسّلتُ إليها، كي تُدبِّر لي مَسْكَناً.

وبمُجرّد ما أنهيتُ مهمّة السفير، سلّمْتُ رسالتي إلى الملكة التي وافقتْ على مَنْحي ذلك المنزل فيما بعد، وأرسلتْ معي أشخاصاً، ذهبوا إلى قُوّاد المدينة ومعهم أوامر بمَنْحي ذلك المنزل. لكن ذلك سبّب لي عداء الكَهَنَة الذين كانوا قد وعدوني ببَيْت تلك الإسبانيّة، في حال تحريرها. غير أنني كُنتُ أذكى منهم، لأنني كُنتُ أعلم من قَبْل بأنّه لنْ ينالَ أيُّ فرنسي وأيُّ إسباني حُرّيّته، وهذا ما تمّ التّأكّد منه فيما بعد. ولأن الملك، لن يتجرّأ على تَرْك السفير يعُود دون أسرى، حرّر ستّة فرنسيّيْن شيوخ، بفعْل الهدية، وأيضاً بفِعْل افتدائهم بـ ٦٠٠ ريكسدالا لكل واحد.(*)

أقمتُ في ذلك البيت الذي حصلتُ عليه من الملكة، والذي كان في حالة سيّئة، لم يكُن بمستطاعي السَّكَن فيه قبْل أن أُدخل عليه بعض الإصلاحات، كلّفتْني ١٤ دوكة حتّى أتمكّن من السَّكَن به. وبالكاد ما أصْبح على تلك الحال حتّى غادرْتُهُ مجدّداً.

وهكذا قضينا، في بداية السنة شهر فبراير الذي كان موافقاً لشهر رمضان بالنسبة للمغاربة أو المسلمين، في بيْت الباشا لدى ذلك اليهودي، لأنه في فترة الصيام تلك لا يتعاطى المغاربة والمسلمون المشروبات الكحولية.(**) ومن جُملة الأمور التي وقعَت، حين ذهبْنا إلى إسطبلنا، لامَني ذلك اليهودي، لأنني توجّهتُ إلى الباشا من أجْل تحريضِه ضدّه، كي ينتزعَ منْه بيتَه، وهو ما كان مستحيلاً أيضاً، ومن المستحيل لَمْس السماء

---

*) المبعوث هو مَنْ أدّى ذلك المبلغ.[F]

**) هذا السلوك المُتعوَّد عليه (لأنه لا ينبغي أبداً شرب الكحول حسب القانون) ما يزال ملحوظاً في أيّامنا هذه.[F]

باليد، بالنسبة إلى شخص، لأن كل شيء كان متعلّقاً بالملك، ولا يوجد باشا قادر على طرد النصارى، ووَضْع آخرين مكانهم، ولم يسبقْ لي أبداً أن رأيتُ ذلك الباشا. لم يُظهِر ذلك اليهودي أيّ رغبة في التراجع عمّا قاله، على الرغمِ من أنّنا أقسمنا له بأنّنا أبرياء براءة تامّة في تلك القضية. لكنْ، لا حياة لمَنْ تُنادي. سعَيْنا حينها ألا نتعلّق بأيّ باشا، ما دُمْنا سنُعفَى من خِدمة الملك، لكنّنا سَعَيْنا إلى التّعلّق بالملِكة، من أجْل ألا نتعرّض لخطر العودة إلى الخدمة المَلَكيّة.

الإقامة لدى الباشا

مع ذلك، في يوم ٢٩ يونيه من السنة [١٧٣٢م] نفسها، أصدر الملك أمراً يقضي بإحضار الأسرى النصارى كلها، كي يمثلوا بين يَدَيْه. وتمّ إرسال مَنْ يدعونا أنا وزوجي ببيتنا، لكي نمثُل بين يَدَي الملك. وبمُجرّد ما وصلنا إلى القصر المَلَكي، تَركْنا الأسرى الآخرين، وتوجَّهْنا إلى الملكة، لنتوسّل إليها، كي تُشغِّل زوجي كبوّاب. وهو ما وافقتْ عليه، وأرسلتْنا أنا وزوجي ومعنا رسولان إلى المدينة لدى رؤساء الأسرى. وجدتُ حينها صعوبة كبيرة في السَّيْر، لأنني كُنتُ بلغتُ المراحل الأخيرة منْ حَمْلي. وكُنتُ أُخاطر، إذنْ، بالولادة في الطريق. عُدْت بشقّ الأنفُس، في حين ذهب زوجي إلى الدَّيْر، ليبحثَ عن شيء ما هناك، حيث وجد رقّاصاً(*) للملك مُكلَّفاً باقتيادي أنا وزوجي إلى ذلك الباشا المذكور أعلاه، لأنّ الملك انتزع ذلك اليهودي من الباشا، واستبدل به أنا وزوجي، وهو ما كان يتعارض تماماً مع إرادتنا. لأن الملك، بعْد أن استعرَض النصارى كلهم وموضَعهم بحسب مزاجه، طلب من رئيسهم، ما إذا كان النصارى كلهم حاضرين؟ أجابه ذلك

---

*) رقّاص كلمة عاميّة مغربية، كانت متداولَة، وتعني، هنا، مبعوث أو مرسول. [المترجم].

الرئيس بأنّ النصارى كلهم حاضرون، باستثناء الرجل والمرأة اللذَيْن زوَّجهما. وعندَها قال الملك:

- "لقد انتزعتُ نصارى من الباشا، امنَحوه ذلك الرجل وتِلك المرأة بدَل الآخرين."

حاولْنا نحْن ورقّاصو الملكة لدى رقّاص الملك، من أجل تجنّب ذلك القرار، لكن كلمة الملك رجحتْ، فذهبنا إليه [الباشا] بحُزن شديد.

وهكذا غادرْنا، مجدّداً، بيتَنا الصغير الذي كلَّفنا مصاريف كثيرة، فأعطيتُهُ لامرأة برتغاليّة، لتسكُنه، ما دُمنا لسْنا في حاجة إليه. ذهبْنا، إذنْ، لنُقيم في بيت الباشا، حيث نُهِبْنا كثيراً. كان الباشا طيّب المعاملة في أعين النصارى، وكان يُحسن إليهم، فقال لليهودي، إن كان يريد الإقامة معنا بالبيت، فيمكنُه ذلك؛ وإننا سنمنحُه غُرفة، لينام فيها، وهو ما فعلْناه.

تسيير حانة

كانتْ توجَد حانة مُلحَقَة بذلك البيت، وكان الباشا قد وافق على مَنْحِها لنصاراه، كي يُخوِّل لهم كَسْب رزقهم، فصارت لنا، إذنْ، ولم نكُن مُجْبَرين على اقتسامها مع أيّ كان، لأنّنا كنّا نتكفّل بتوفير نفقات خادم ومكانس خاصّة ببيت الباشا، ولأنّ زوجي كان مُكلَّفاً يومياً بكَنْس بيته وطريقه؛ والنفقات كلها كانت متعلّقة به، وكان يتوجّب أداؤها من مداخيل الحانة. منحنا اليهودي، إن أراد البقاء، ثلث أرباح الحانة، بالإضافة إلى مأكله ومشرَبه يومياً، بحيث إنه كان يُطعَم مجاناً، بالإضافة إلى حصوله على أجر، ممّا كنّا نكسبه أنا وزوجي من مال، لكنّه لم يكن في ذلك الحين

مُجْبَراً على ذلك، لأنه كان يشتغل في خدمة الملك، من شروق الشمْس إلى غروبها.

وافق اليهودي على ذلك، لكن ذلك لم يدمْ مدّة أطول، لأننا لم نقبَل أن يُدخِل إلى البيت، ليلاً، نسوة مسلمات. لأنّ حياتنا كانت مترابطة، وإن كُشِفَ أمره، سيُغادرنا، إذنْ، وهو ما لم يُحزننا، لأننا لن نكون في خطر.

أقمْنا ما يقارب سنة ونصف لدى الباشا، وازدهرت حانتُنا، شيئاً فشيئاً، بحيث إنّنا لم نُكن سيّئي الحظّ كثيراً. وكان لنا عدد لا بأس به من المنغّصات في ذلك الوقت، لن أحكيها هُنا، وسأقفز عليها، ولنْ أواصلَ الحديث سوى عن الأمور التي جعلتُها هدفاً، من أجله حرّرتُ هذا الكُتيّب، بدءاً من يوم ٢٨ أكتوبر من سنة ١٧٣٣م.

الملك يهشّم رأس باشا

في الصباح الباكر، من ذلك اليوم، كما جرت العادة، كان الباشوات والقُوّاد كلهم مصطفّون على شكْل حَرَس، ينتظرون أمام باب القصر المَلَكي، وكان باشانا من ضمنهم. حين خرج الملك، أجلس الباشا أمامه، وأمر رجاله بتهشيم رأسه، فمات على إثرها، واستولى على بيته وأثاثِه، وبما في ذلك عبيده النصارى. وتمّ طرْد النساء عاريات تماماً إلى الشارع، فوقعْنا مُجدّداً بين يَدَي الملك، وفقدْنا سُبُل عيشنا أنا وزوجي. لأنّه في آخر يوم من تلك السنة تولّى زوجي العمل في خدمة الملك، وهو عمل كان يرزح تحْت وطأته الكثير من النصارى والمغاربة، بحيث إن زوجي كان قد عرّض نفسَه لأكبَر خطر، وهو فُقدان حياته. أُجبرتُ أنا أيضاً على تَرْك

ذلك البيت، وكان لي بيت آخر، أسكن فيه، لكنْ، صعُب عليّ طَرْد تلك البرتغالية منه، فذهبتُ للإقامة مؤقّتاً لدى نصرانيّ آخر، في انتظار الحصول على بيت آخر من الملكة.

عملتُ كل يوم ما في وُسعي من أجل تحرير زوجي من ذلك العمل في خدمة الملك. فقُدّمت لي الكثير من الوعود، لكن الأكيد أنني لم أحصلْ على زوجي. تمّ إعطائي منزلاً آخر مجدّداً، لكنّني صرفْتُ مالي، ولم أعُد قادرة على كسْب أموال أخرى. ومع ذلك، كان ينبغي علينا توفير سُبُل أخرى للعيش، لأنه لم يكن لنا أيّ شيء سوى ما أقرضَه لنا صديقٌ طيّب حتّى يُدبِّر اللهُ أمرَنا.

سعيي إلى مقابلة الملك

كُنتُ أعتقدُ: "هذا لا يمُكن أن يستمرّ هكذا؛ ينبغي أن نقوم بمحاولة أخرى." وخاطرتُ بلا روية، وخرجْتُ سرّاً من البيت يوم ٩ مارس ١٧٣٤م. وكان ذلك يوم جُمعة، وهو يوم يذهب فيه الملك إلى الكنيسة (تقصد المسجد)، وهو يومّ أحد، حين خرجتُ من باب سجْننا، سألَني الحارس:

- "إلى أيْن أنتِ ذاهبة؟"

أجبتُهُ:

-"إلى السوق، من أجل شراء اللحم."

صدّقني، وسمح لي بالذهاب. عنْد وصولي إلى السّوق، كان معي ابني الثاني، ذي الثمانية أشهر، بين ذراعَي، انتزع مُتعلّم جزّار قبّعته الصغيرة.

فأحكمتُ قبضتي عليه، وأردتُ جرّه إلى الملك حينَها، فاجتمَع حشْد من الناس، وتوسّلوا إليّ، وناشدُوني كي أُطلق سراحه. بملاحظتي ذلك، قرّرتُ معالجة القضية عن كثب، وألححتُ بشدّة على اقتياده. وقلتُ في داخلي:

- "هذه بداية موفّقة، سأكون شجاعة مفعَمَة بالثقة والشجاعة."

وذاك ما فعلتُ.

ذهبتُ،إذنْ، إلى القصر، لكنّني لم أتمكّن من دخُوله، لأنّ الملك كان قدْ غادَر حينَها بيتَه من أجْل الذّهاب إلى المسجد، بحيث كان يتوجّب عليّ المرور حول الأسوار الخارجية والقلاع حتّى أتمكّن من الدخول إلى القصر عبر باب آخر، لكنني كُنتُ معرَّضة هناك لخطر الالتقاء بالمُشرفين على الأشغال الذين كان يعمل النصارى تحْت إمْرتهم، وكان بينَهم زوجي الذي وجدتُهُ هناك. كُنتُ غاية في الرعب، ومع ذلك، خاطرتُ بتعريض نفسي أنا وزوجي للجَلْد، بالإضافة إلى وَضْع الأصفاد بأرجلنا. أدرتُ ذلك الأمر بحذْقٍ، إذنْ.

حين وصلتُ بالقرب من أولئك المشرفين ومن النصارى، سألوني:

- إلى أين أنا ذاهبة؟

أجبتُهم بأن الملكة استدعتْني في ذلك اليوم. وأنها تطلُب زوجي أن يذهب إلى الملك، وأطلقتُ ذلك بسذاجة. فلمْ يتمكّنوا من فَهْم أيّ شيء آخر منّي، وقالوا لي بأنني أحسنْتُ الفعل، وكانوا جدّ راضين. لأنهم كانوا يعلمون جيّداً أنه كان للملكة تأثير نسبي على الملك، وأنني لن أتمكّن من تحرير زوجي، بفضلها، وذاك ما كُنتُ أنا نفسي واعية به، لكنّني أبقيتُهُ في

طَيّ الكتمان. لأنني سعيتُ من قبْلُ، منذ أربعة أشهر لدى الملكة، بتقديم الكثير من النفقات، دون تحقّق أيّ نتيجة تُذكَر، إذ إنني كُنتُ أبحث عن حيلة أخرى، تمُكّنني من بلوغ أهدافي.

هكذا دخلْتُ عبْر باب القصر، وذهبْتُ إلى الداخل، وتحديداً بمكان قريب جدّاً من الباب الآخر الذي اجتازه الملك في أثناء ذهابه إلى المسجد، انتظرتُ هناك في الساحة الكبرى للقصر حتّى يخرجَ الملك من ذلك المسجد، غير أنّه لم يعبر تلك الساحة، بل خرج من ذلك الباب، وعبر الطريق الخارجي الذي سبق لي أن سلكتُهُ أنا نفسي فيما مضى.

لذلك أُجبَرْتُ مجدّداً على المرور من الداخل. من أجْل الذهاب إلى الباب الآخر، وهو ما فعلْتُهُ؛ خرجتُ منْه بمشقّة، ووصلتُ إلى الطريق التي من المفروض أن يمرّ منها الملك. إلاّ أن المشرفين على النصارى رأوني، وسألوا زوجي ما إذا كُنتُ أرغبُ في المثول بين يَدَي الملك. لكنّه تظاهر بأنّه يجهل كل شيء. أرسلوا زوجي إليّ، ليخبرني أنه يتوجّب عليّ أن أدخل إلى واحد من تلك البيوت العتيقة، لكنْ، بعد أن اجتاز [زوجي] عشر خطوات، ظهَر الملك في زاوية القلعة، وهو ما أجبره [زوجي] على العودة لمتابعة عمله.

واقتربتُ أنا حينها من الملك، ووقفتُ وسط الطريق حتّى يراني حينها من بعيد، وكي لا يطردَني أيّ واحد من الحَرَس الذين كانوا يتقدّمونه. وفقاً لذلك اقترب منّي الملك، وكُنتُ حينها، من بعيد، قد سجدتُ وصرختُ:

- "الله يباركُ في عُمر سيّدي."

وقبّلتُ الأرض لدرجة أن غبارها علق بوجهي، كما جرت العادة حين

يتمّ المثول أمام الملك. وحين رأى الملك ذلك، عامَلني بلطف، وأرسل رجلَيْن يسألانني ماذا أريد؟ أجبتُهما بأنّني أرغَب في التّحدّث إلى الملك شخصياً، وأنّني لا أريد أن أكشف لهُما عمّا أرغَب فيه.

حصولي على بيت جديد

اقتاداني في ذلك الحين أمام الملك. كُنتُ نافدة الصبر في انتظار ما سيسألني عنه. لكنني صرختُ بكامل قواي:

-"اللهُ يباركُ في عمر سيّدي. ليس لي سواكَ، سيّدي، أتوسّل إليكَ أن تعيدَ لي زوجي. ليس لي مَنْ يعيلني غيره في كسب قُوْت يومي أنا وطفلي."

ضحك الملك لشجاعتي، ومن صرخاتي الصاخبة. فقال لي حينها:

- "هل أنت تلك المرأة التي زوَّجْتُها؟"

فأجبتُ مجدّداً وأنا أصرخ:

-"نعم. اللهُ يباركُ في عمر سيّدي. وهبني اللهُ زوجاً طيّباً."

فشملني الملك بعناية كبيرة. وتحدّث إلى باشواته قائلاً:

-"أليس هو ذلك النصراني الذي أعطيتُهُ لذلك الباشا؟ اذهبوا للبحث عنه، وسلّموا هذه إلى النصراني الذي يحرس خزينتي، ومُرُوه أن يُوفِّر لها منزلاً، وأن يقدّم لها ما تأكل، ووفِّروا لزوجها عملاً حتّى يتمكّن من توفير قُوْت يومها هي وابنها."

تقدّم واحد من الباشوات على وجْه السرعة، وأمسكني من يدي،

وأبْعدَني عن الملك، وكلّف واحداً منَ خُدّامه بالبحث عن زوجي، وقادنا إلى ذلك النصراني الذي كُلِّف بإعانتنا كما قال الملك.

ولكنّنا كنّا جدّ بعيدَيْن عن بعضنا حينها. وبدل أن يعمل زوجي من أجل توفير قوت يومي أنا وطفلي، كان مُجبَرَاً على العمل لصالح الباشا، وأن يعطيه أيضاً المال زيادة على ذلك.

حِيَل الإسبانيّة

لاحظ المغاربة جسارتي وشجاعتي، فقرّروا أن يُظهروا لي بعض الاحترام، ولم يتجرّؤوا على معاملتي بقسوة جدّاً، بعد أن كانوا قد اضطهدوني حتّى تلك اللحظة. ومنذُ ذلك الحين، أصبحتُ أكثر جسارة نحوهم، واحتميتُ باستمرار بالملك. ابتداء من تلك الفترة، لم يعاملوني بعُنْف أبداً، وهو ما جعلَني موضع حسد كبير من قِبَل تلك المرأة الإسبانيّة التي استعملتْ الحيل والأكاذيب كلها عبْر وساطة مبعوثة الملك، محاولة بشتّى الوسائل وَضْع قَدَمِهَا على رقبتي، بحيث إنه كُلّما ذهبتُ إلى الملكة، كُنتُ أجد لديها العديد من الشكاوى مقدّمة ضدّي.

قالوا بداية، إنه تُوجد بحوزتي عُلبة حلي،كانت في ملك الباشا، ومال وثروة، كُنتُ مُكلّفة بحراستها، فلم أُرْجِعْها إلى الملك. ومن جهة أخرى، كان قد مات ابني، فلُفِّقَتْ لي تُهمة قَتْله.

وحين رأت [المرأة الإسبانيّة] أنني أفلتُّ من العقاب، بعكس رغبتها، اختلقتْ كذبة أخرى، لكنني لم أتزعزعْ، لأن الحصان غير الأجرب لا يخشى المشط، ولم أحجمْ عن الذهاب إلى الملكة.(*)

---

*) محكي الدسائس الأخرى للإسبانيّة المذكورة تمّ حذفها هنا..[H]


محمد خطاب

الفصل الرابع
حكم مولاي علي الأعرج
١٧٣٥-١٧٣٦م

سفير إنجليزي في مكناس

لمْ نحتفِظ كثيراً بالملك مولاي عبد الله(*)، لأنّه بعْد مرور شهر على تلك القضية، عاد الملك من موضع الجيش، وجاء السفير الإنجليزي يوم ١١ غشت من سنة ١٧٣٤م بَحْثاً عن أسراه.

نبوءة بملك جديد

وكان يوم ١٢ [غشت ١٧٣٤م] هو يوم عيد الفصح [تقصد عيد الأضحى]، حيث يضحّي الملك بكَبْش، وهو ما تمّ خارج المدينة على تلّ، حيث تولّى الملك بنفسِه نَحْر كبْش الأُضْحِيّة. وكان ينبغي أن يظلّ الكبش على قيْد الحياة حتّى يصل إلى القصر، وإذا مات في الطريق، فإنّ ذلك يُنذر بأن الملك لن يستمرّ مدّة أطول في المُلك.

يُوضَع الكبش فوق بغل [ة] سريعة الهرولة، كي تحمله بأقصى سرعة إلى القصر، لكن البغلة عثرت هذه المرّة في الطريق، ولاحظها كبار الدولة كلهم، لذلك طأطؤوا رؤوسهم، وتنبّؤوا بأن نهاية حكم الملك وشيكة جدّاً، وهو ما حصل [فعلاً].

---

*) فعلاً خُلع السلطان مولاي عبد الله عدّة مرّات من العرش. [المترجم].

مقابلة السفير للملك

عنْد عودة الملك من الاحتفال بالعيد، كان ينبغي عليه أن يمرّ من خلف دَيْر الكَهَنَة الواقع بالقرب من أسوار المدينة، وجلس السفير الإنجليزي، دون شكّ، بالجزء العلوي من المنزل، بمعيّة موسيقييه، وحَيًّا الملك الذي ردَّ عليه التحية عبر ثلاث طلقات بندقية. وفي اليوم الموالي، مَثُل السفير بين يَدَي الملك حاملاً معه هداياه، وأعلَن عن [لائحة] الأسرى الذين سيحصل عليهم بأكملهم، وأيضاً آخرين من فوق تلك الصفقة: اسكتلنديون وإيرلنديون وهانوفريون(*) وأيضاً مَنْ كانوا مقيمين بهولندا وأُسِروا تحت الأعلام الهولندية، إذ استطاع الحصول على ١٤٦ أسيراً، وغادر رُفقتهم المدينة في اليوم نفسه.

تاجر يفاوض حول أسرى هولنديّيْن

وفي تلْك اللحظة ذاتها، كان يُوجد بالمدينة تاجر يُدعى جوزيف ريبكسو (Joseph Rebexo) دخل في مفاوضات مع الملك حول ٨ أسرى هولنديّيْن، كانوا قباطنة وملازماً وواحداً من الركّاب، وكان من بينهم قُبطاننا.

تمّ الاتفاق على ذلك في يوم ١٦ [غشت ١٧٣٤م]، ونظراً لأنه كان يتوجّب على واحد من أولئك القباطنة قَطْع مسافة ١٠٠ ميلاً قادماً من بلاد تافيلالت إلى مكناس، لم يستطع الآخرون الذهاب، لأنّه في تلك الأثناء، تمّ خَلْع الملك من على عرشه، وهرب بعْد ذلك.

---

*) في تلك الفترة، كما نعرف، أن هانوفر كانت في وحدة مع بريطانيا العظمى، وظلّت كذلك إلى غاية مجيء الملكة فيكتوريا.[F].

ملك جديد

ومباشرة بعد ذلك، تمّ تنصيب مولاي علي(*) ملكاً، وقد كان حينها في تافيلالت، وكان طاغية ممقوتاً من قِبَل النّصارى والمغاربة، اصطحب معه ذلك القبطان. فلمْ يلغِ الاتفاق، بل وافق على تحرير أولئك الأسرى الثمانية، كما نصّ الاتّفاق.

مضايقات أخ الملك

عانيتُ من مضايقات أخ ذلك الملك [الجديد]، ومن حاكم المدينة اللذَيْن أجبراني على تأدية رسوم البيت، وكانا لا يتوانيان يومياً في التّسبّب لي في الكثير من المشاكل، وبما أنّني كُنتُ قد حصلْتُ على ذلك البيت من الملك السابق، فلم يتجرّأا على رفع أيديهم عليّ، لكن زوجي أدّى ذلك بدلاً عنّي بتعريضه للضرب.

وهكذا ذات صباح، استدعى الملك زوجي من الباب، وطالبه بالمال. فأجابه زوجي أنه سبَق له أن أدّى مستحقّات عدّة شهور مقدّماً، فسبَّهُ الحاكم، ونعتَهُ بالكافر، وبالبهيمة ذات القرون، وتناول عصا، وأشبعه ضرباً. وبما أنّني كُنتُ واقفة بالباب، أسرعتُ نحوهم، وخلّصتُ زوجي منهم. وواصلَ الحاكم نُزهته على متن حصانه، بمُجرد ما تدخّلْتُ، دون أن يتكلّم عن الأمر. هدّدتُهُ بتقديم شكوى ضدّه لدى الملك، لكن زوجي

---

*) مولاي أبو الحسن علي بن إسماعيل، بُويعَ بالخلافة على يد سالم الدكالي ورؤساء العبيد، وتابعهم الفقهاء والأعيان، وكان بداره بسجلماسة، وصلتْهُ البيعة هناك. انظرْ محمّد بن عبد السلام بن أحمد بن محمّد الرباطي الملقّب بالضعيف، تاريخ الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان، دراسة وتحقيق محمّد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ٢٠٠٧، الجزء الأوّل، ص٢٠٨. [المترجم].

لم يتوانَ عن جعلي أتخلّى عن ذلك، بدعوى أن الملك كان طاغية كبيراً، ويمكنه أن يرديني قتيلة بتسديدة بندقية دون أن يَسمَع لي. لكنّني لم أُعِرْ أيّ اهتمام لتحذيراته.

وبما أن زوجي كان يُوجد بمخزن الملك خلال النهار، كان ذلك فرصة مواتية لي للذهاب إلى الملك، دون أن يعلم زوجي بالأمر. وهكذا نفَّذتُ مشروعي في اليوم الموالي دون علم أيّ أحد، فذهبتُ في الصباح إلى الملك، قبْل أن يغادرَ قصره، وانتظرتُهُ عند باب المدينة.

الملك يطلق النار على مخمور

لمّا كُنتُ واقفة، جاء أسير من دونكيرك (Dunkereque)(*) صحبة مغربيَّيْن، من أجل أن يُسلِّمهما، بحضور الملك، سلسلة أسود ودببة للملك، حتّى لا يؤدّي ذلك على مرَّتَيْن. كان يبعُد عنّي بحوالي ٢٠ خطوة، حين اقترب الملك. وعلى بُعْد عشر خطوات، قال الملك:

- "ماذا يريد هذا الكافر؟ اذهبوا واشتمُّوا ما إذا كان مخموراً."

لم يتجرّأ المغاربة على قول شيء آخر سوى:

- " لقد شرب الكحول؛ فاحتْ منه رائحة ماء الحياة."

فلم يُكلّف الملك نفسه عناء أن يسأل لماذا جاء ذلك النصراني إليه، وأطلق عليه النار، فأرداه قتيلاً.

---

*) مدينة فرنسية تقع في شمال فرنسا. [المترجم].

هروبي

وعندما رأيتُ ذلك، هربتُ نحو المدينة، حتّى لا يأتي دوري. ابتعدْتُ بصعوبة، لأنّني لم أستطعْ الوصول إلى المدينة بسرعة قبل أن يصل الملك إلى بوّابتها الخارجية. علِم زوجي بذلك، فلم يُبْد أيّ استغراب سوى الخوْف من ثِقتي الزائدة في نفْسي.

استبداد الملك

وكان ذلك الملك هو الآخر مستبدّاً كبيراً داخل قصره، لأنه أعدَم عدداً لا يُستهان به من النصارى، ودفنَهم تحْت شجرات الزيتون. وبعْد ذلك، انتشرتْ إشاعة تقول إنهم هربوا من أجل رؤية الملك السابق والده، حينما كان ما يزال أميراً، وحصل حينها على نصارى آخرين. لقد تولّى الملك مدّة ١٩ شهراً(*)، وخلال تلك الفترة، قام بقتل ٥ نصارى أبرياء، وكان قد سدّد نحو واحد منهم ١٢٠ رصاصة. هذا أهمّ ما استرعى انتباهي خلال فترة حُكمه، بما في ذلك محاولته قَتْل زوجي.

غلاء

بعْد مرور حوالي شهر على ذلك الأمر، تمّ استدعاء الرجال والنساء المتزوّجات للمثول بين يَدَيْه. كنّا أربعة أزواج، وامرأة رفقة ابنها، تمّ إيقافُنا عن عملِنا، باستثناء زوج المرأة التي سبَق لي أن تحدّثتُ عنها، والتي

*) يقول الضعيف الرباطي: "فكانت دولتُه عاماً واحداً وسبعة أشهر وواحداً وعشرين يوماً." م. م، الجزء الأوّل، ص٢١٢-٢١٣. [المترجم].

ازدادت كراهيتُها لي، لكنّها كانت تخشاني، لأنني لم أكن أتردّد في الذهاب إلى الملك، لذلك تركتْني وشأني.

دخلْنا في فترة عصيبة من الغلاء، أصبح فيها مُدّ(*) من الحنطة يكلّف ٢٠ ديبلت(**) بينما كنّا نؤدّي فيما سبق ديبلت واحداً ونصف للمُدّ. لكنْ، كان الناس حينذاك يتوفّرون على المال، وكانت هناك تجارة رائجة، فلم نُعانِ كما في الفترة الأخيرة للغلاء، وهو ما سيأتي فيما بعد.

الملك يعتقد أن ابني مخدّة

في تلْك الأثناء، ترَكَنا الملك في راحة حتّى يوم ٤ فبراير من سنة ١٧٢٥م، حين استدعى الأسرى المتزوّجين، غير أنّه كانت هناك واحدة من النسوة برتغالية توفّيَ زوجها صباح ذلك اليوم، وأنا كُنتُ قد وضعتُ منذ شهر، وكُنتُ قد قمّطتُ ابني على الطريقة الهولندية. فقال الملك حينها لتلك المرأة:

-"اذهبي وأحضري لي تلك المخدّة التي تمُسكها تلك النصرانية بين ذراعَيْها."

انتزعَت منّي الطفل، وحملتْه إلى الملك، فاعترتْه دهشة كبيرة، لأنه اعتقد أنّه وسادة، فانتابَني قلق شديد. وبعْد أن نظر فيه مليّاً مدّة من الزمن. نادى على زوجي، وأرْجَعَ له الطفل. وسأله عن جنسيّته، فأجابه بأنه هولندي. وقال له الملك:

---

*)المُدّ هو مكيال قديم لقياس الحجم. وسُمّي مُدّاً لأنه قدر ما تمتدّ به اليد من العطاء. [المترجم].

**) عشر فلوران (العملة الهولندية). [المترجم].

-"إن توفّر لديكَ المال من أجل شراء حُرّيّتكَ، أخبِرْني."

وهو ما كان عبارة عن مواساة بالنسبة إلى باقي النسوة اللواتي تلقّينَ كلمة بمعناها الضّدّي (كذا)، باستثناء تلك الأرملة الشّابّة التي تلقّت الأمر بالعودة إلى بيتها ريثما يُزوِّجها الملك من رجُل آخر. مُنحْتُ، هكذا مثْل امرأة بُرتغالية، لأُخت الملك، المَدعوّة سيلة بنت مولاي(*) والمرأة الإسبانيّة وأمّه الأخت المَلك الصغرى.

لدى أخت الملك

كُنتُ جدّ سعيدة لدى سيّدتي، أكثر بكثِير من زميلتي، لكن الأسوأ كان هو ذهابي مرغُوبة إلى القصر، لأن أصغر إخوة الملك كان يضع دائماً سكّيناً على صدري، ويقول لي:

-"ادخلي الإسلام، وإلا سيخترق السّكّين صدرَكِ."

وكم من مرّة بصق على وجهي، وضربني، وعنّفني. ومع ذلك كُنتُ أجرؤ على الذهاب إلى القصر. ولم أكُن أجرؤ على الاشتكاء من الملك، وكنّا [نحن النصارى] في تلك الفترة أقلّ شأناً من اليهود، إذ كانوا يعدّون اليهودي أقلّ شأناً من كلب، فكان يتوجّب علينا أن نتحمّل أشكال الأذى كلها، وكنّا نكافئهم بهبات وهدايا. وحين يكون واحد من كبار رجال الملك ثملاً، فنحْن الأسْرى مَنْ يؤدّي الثّمن، ويتمّ إغلاق حاناتنا، ونُجبَر على دفْع أموال زيادة على ذلك. وبرؤية المغاربة لذلك، كانوا يغتنمون الفرص كلها لنَهْب النصارى، ويستنزفونهم كما يشاؤون.

---

*) لا شكّ أن المقصود لالة بنت مولاي. [F].

قصّة جون بيزول

من ذلك، كان هناك صاحب حانة من معشر الأسرى الفرنسيّيْن، أتى إليه بعض المغاربة ومعهم طفل صغير، وكانوا يريدون الحصول على غرفة خاصّة بهم. وكان صاحب الحانة ذاك يُدعى جان بيزول (Jean Pusole)، والذي رفض الإذعان لرغبتهم، فهدّدوه بالانتقام، وبعد ذلك نفَّذوا وعيدهم. وفي الليل، جاؤوا إلى سجْننا أو قنوطنا(*)، وانتزعُوا جان بيزول من سريره، واقتادُوه إلى الملِك في الصّباح الباكر، ولفّقوا له تهمة إدخال أشخاص مرتكبين للآثام لبيْته. وكان الملك مُعادياً لتلك الأفعال، فتناول بندقيّته، وأطلق نحوه خمس رصاصات دون أن يُصيبَه، واستعصى عليه الأمر في الطّلقة السادسة، وهو ما أغضب الملك كثيراً. فطرح بندقيّته أرضاً، وكلَّف رجالَه بإطلاق النار عليه. لأنّه كان محاطاً بـ ١٢٠ رجلاً، كانوا ممسكين ببنادقهم محمّلة بالرصاص، وسدّدوا كلّهم نحْوه،لكن لم تُصبْه أيّ رصاصة، باستثناء ملابِسه التي اخترقتْها. حين رأى الملك أنّه لم تُصبْه أيّ رصاصة، أرسلَه إلى القنّوط من أجل تجريدِه من كل ما يملك.

لم يكن [بيزول] يملك أيّ شيء، وأفهمهم أنه كان مُجرّد بوّاب بالبيت الفرنسي، لكنّهم امتنعوا عن تصديقه، وشرعوا في ضَرْبه بشكْل فظيع بحبال جِلْدية مبلّلة ومضفورة، وهكذا أجبروه على إخراج المال كله الذي كان في مِلك معشر الأسرى الفرنسيّيْن. كما أن رئيس معشر الأسرى الفرنسيّيْن الذي كان يحرس المال عُومِلَ بدوره بفظاعة.

حين علِم الكَهَنَة بتلْك القضية، حاولوا التّدخّل، لكنْ، دون جدوى، بل أُجْبروا على إعداد هدية للملك، وذهبوا إليه، ومعهم أسير كبير، كان من الطبقة الأولى، كان مكلّفاً بصناعة البنادق للملك، وكان له تأثير كبير

---

*) سجنٌ كان مخصّصاً للأسرى الأجانب.[المترجم].

على الملوك كلهم، بسبَب براعته في عمله. كان دائماً يُعِدّ مدافع وبنادق، ليقدّمها كهدايا للملك، كلّما فَقَدَ نصراني حظوتَه لدى الملك، وكان له فضْل كبير في تمديد حياة العديد من الأسرى.

ذهب ذلك الأسير الشيخ، إذنْ، مصحوباً ببعض الكَهَنَة، مع المغاربة الذين كان في حوزتهم مال النصارى إلى الملك، وسلّموه الهدية، ومعها طلب الترخيص بالتّحدّث إليه، وهو ما تمّت الموافقة لهم عليه، وشرحوا له القضية قائلين: إن جون بيزول كان في خدمة الأسرى الفرنسيين، وكان مُعوزاً، لا يملِك شيئاً، وأن الأموال التي وجدوها لديه هي أموال معشر الأسرى الفرنسيّيْن، وبفضلها كان يعصر الخمر هذه السنين كلها، ومن عائداتها كانوا يُوفّرون ملبسَهم ومأكلَهم، وكانوا، من حين لآخر، يوزّعون المال على الأسرى الفرنسيّيْن، كما كانوا يعالجون بها المرضى والجرحى، وكانت لهم فيها مآرب أخرى أيضاً. كان المال يساعدهم فعلاً على قضائها. فتمكّنوا من استرجاع المال، واسترجاع جان بيزول، لكن ذلك كلّفهم نصْف أموالهم. وقع ذلك في أكتوبر من سنة ١٧٣٥م في الوقت الذي كان يوجد فيه زوجي بمدينة سلا لدى السفير الهولندي السّيّد هاندريك ليانسلاجر (Hendrik Lynslager).(*)

إرسال زوجي إلى سلا

وإذا بنَا نتلقّى يوم ٢٧ يُونيه [١٧٣٥م] رسالة فحوْاها أن السّيّد المذكور آنفاً جاء بهدية إلى الملك مُقابل افتداء باقي أسْرانا. وحين أبْحَر السّيّد لينسْلانْجر من هولندا، كان حينها مولاي عبد الله ما يزال ملكاً، وكان

(*) هو قبطان السفينة هندريك لينسلاجر. [H].

قد تلقّى [لينسْلانْجر] أوامر بالإبحار بُغْية معالجة أمْر السِّلْم شفوياً مع الملك، وتحرير الأسرى، وبما أن ذلك السّيّد لم يكن يعلم أن ملكاً جديداً قد اعتلى العرش، وهذا ما لم يتبيّنه سوى عند وصوله، فلمْ يستطعْ اتّخاذ قرار النزول من السفينة، قبْل أن يكون سادته بالأقاليم السبعة المتّحدة [تقصد هولندا] على عِلْم، وأن يُصدِروا أوامِر.

بمُجرّد ما علم الملك بأن السّفير الهولندي يُوجَد بمرفأ مدينة سلا، توسّل إليه لينزِل من السفينة، ويتَفاوض معه شفوياً، ووافق له على تحرير الأسرى شريطةَ أن يأتي هو بنفْسه للحُصُول عليهم. لكنّ السفير اعتذَر قائلاً بأنّه لم يتلقّ [من سادته] أيّ أوامر بالنزول إلى البرّ، على إثْر ذلك، أرسل الملك زوجي من أجْل إقناع السفير [بالنزول]. لكن ذلك كان بلا جدْوى.

بعْد فترة قصيرة من إرسال زوجي، أرسل الملك أيضاً باشا وأربعين رجلاً يخفرونه في الطريق، حتّى لا يخشى أيّ مكروه. لكن ذلك كان بلا جدوى، لأن السّيّد سلانجر كان يريد أن يحصل أوّلاً على الأسْرى، وبعْد ذلك، يُرسل الهدية والأموال إلى البرّ بما يناسب، لكنه لم يتمكّن من تحقيق ذلك، ولم يتمّ بالفعل.

أرسل السّيّد ليانسلانجر لائحة بالهدايا المُخصّصة للملك، وكانت مُهِمّة وقيِّمة، عَمِلْنا على ترجمتِها إلى العربية، وقُدِّمَتْ إلى الملك، فَأَسَرَّتْهُ كثيراً. وكانت قيمة الهدايا تُقدَّر بحوالي مائة سانتال من المال، وكان كل سانتال يساوي ألف دوكة(*) من المال، وكانت كل دوكة تساوي ٣ فلوران ونصف بالقيمة الهولندية.

في تلك الأثناء، ذهب السفير إلى قادس، ليكتُب عن ذلك الموضوع

---

*) هي إحدى المسكوكات الذهبية التي كانت متداوَلة في أوربا. [المترجم.].

إلى سادته، وينتظر تلقّي أوامر منهم بالنزول إلى البرّ. وعلى إثر ذلك، استدعى الملك باشاه.

برتغاليون يُفتَدُون بهدية متواضعة

ومن بين أمور أخرى، جاء الكَهَنَة البرتغاليون صُحبة سفير خاصّ إلى مدينة طنجة مصحوبين بهدية مُكوَّنة من ثلاثة دوالب مَطلية باللّك وبعض الأطباق الخزفية المنوّعة من [مدينة] ديلفت (Delft)(*) التي نضعُها نحْن فوْق الدوالب، وكمّيّة من الشاي والسّكّر والمربىّ، لا تساوي عُشر هدية سادتهم السامين. وكان ذلك لا يُشكِّل سوى هدية متواضعة. وصل [السفير الخاصّ] يوم ١٧ شتنبر [من سنة ١٧٣٥م] إلى مكناس؛ وفي يوم ١٨ مثُل بين يَدَي الملك. وحظي باستقْبال ودِّيّ من الملك. إذ تمّ إركابه حصاناً سِرجه من ذهب، وقام بجولة صُحبة الملك عبْر أنحاء القصر كله قصد زيارته، وتمّت الموافقة له، فوراً، على تحرير أسراه الذين تسلّمهم يوم ١٩ [شتنبر] صباحاً، وكان عددهم ٧٢ أسيراً.

غضب الملك من زوجي

وفي يوم ٢٠ [شتنبر] ودّع [السفير الخاصّ] الملك، وتوجّه إلى مدينة سلا، حيث أبحر منها يوم ٢٤ [من الشهر نفسه].

أصابَنا حزن كبيرحين رأينا أولئك البرتغاليِّينْ ذاهبين، مقابل تلك الهدية المتواضِعة، وكان علينا حينها أن نبقى نرزح تحت نير الأسر، ونحن ضحية

---

*) هي مدينة هولندية في مقاطعة جنوب هولندا غرب هولندا بين لاهاي وروتردام. اشتُهرت بصناعة الخزف المعروف بخزف دلفت.[المترجم].

لغم كبير. لأن زوجي كان مايزال بسلا، ولم يكن بمُستطاعه العودة قبْل أن يستدعيه الملك، الذي أرسل في طلبِه، وهو في كامل غضبه.

الملك يقتل طبيباً

مرض الملك قليلاً في شهر نونبر [١٧٢٥م]، وأمَر بإحضار طبيب نصراني، فقدّم له دواء مُسهّلاً. وطلَب منه أن يرتاح في ذلك اليوم، وأن يبْقى في الدفء، حتّى لا يُؤثّر عليه المُسهِّل، ويُسبِّب له ضرراً. وهو ما وقع، على كل حال، لأن الملك قام بعكس ذلك تماماً، وفيما بعد الزوال، تفاقَم مرضه. حينها استدعى الطبيب مرّة أخرى، وبعض الأطباء المغاربة أيضاً، وسأل الطبيب عن أيّ دواء أعطاه. عرَّف الطبيبُ الملكَ والأطبّاءَ بالدواء، وأكّد لهم أن الملك هو مَنْ تسبّب في تفاقم مرضه، وأن ذلك كان خطأه، على إثر ذلك، انفعل الملك، واستشاط غضباً، وقال:

- "أتريد قتلي؟"

ودفَع [الملك] الطبيب إلى الوراء بثلاث خطوات أو أربع، وتناول بندقيّته، وأرداه قتيلاً، وأمر رجاله كلهم بأن يُطلقوا النّار عليه حتّى يُصبِح من الصّعب التّعرّف عليه. وتمّ حمْله على تِلك الحال إلى مصْنع الحديد الخاصّ بالنّصارى.

تذكُّر الملك لزوجي

في تلك الأثناء، تذكّر الملك زوجي. فسأل:

- "أين هو ذلك الكافر الذي ذهب للقاء السفير الهولندي، أخيه النصراني؟"

أخبَروه بمكانه. فأرسل حَرَساً لإحضاره، كي يجعله يخضع لمصير الطبيب نفسه. لأنّ الملك اتّهم زوجي بأنّه لم يُحسن نُصْح السفير بالنزول. وحينما ذهَب الحَرَس في إثر زوجي، وقد استغرق ذلك ستّة أيّام قبْل أن يعود، تفاقمت الحالة الصّحّيّة للملك، وازدادت سوءاً، لدرجة أنه لم يستطع استقبال سوى إخوته وباشواته. وهو ما كان حُسْن طالع، بالنسبة إلينا. وإلاّ كان سيُقاد زوْجي فوْر وُصوله إلى المدينة، ليمتَثل بيْن يَدَي الملك، دون أن يَتمكّن من التّحدّث معي.

عودة زوجي من سلا

وصَل زوجي، إذنْ، يوم ٥ دجنبر [من سنة ١٧٣٥م] مساء، وهو يوشك على الموت. كان قد تضرّع إلى الله بإلحاح شديد أن يُمكّنه من التّحدّث إليّ، ويُسلّمني مبلغاً من المال، حصل عليه من السّيّد لينسْلانْجر ومن السادة القباطنة وربّان السفينة، لأنّه إن لمْ يفعل ذلك، سيكون ذلك المبلغ غنيمة، بالنسبة إلى المغاربة. وكان محظوظاً بأنْ أُرسِل لمكان إقامته لدى الباشا، نظراً لحلُول الليل، ولأنّه لم يكن بمُستطاعه المُثول بين يَدَي الملك، وإنما كان ينبغي عليه أن يذهب إليه في اليوم المُوالي.

هدية للملك

خلال ذلك الوقت، كان للكَهَنَة ما يكفي من الوقت لأن يطلبوا من

رئيس مصنع حديد الملك، هدية لهذا الأخير، وأيضاً من أجْل تسوية الأمر مع الباشوات والعفو عن زوجي. وبما أنّه [زوجي] كان أسيراً، لم يكن في مُستطاعه إجبار السفير على النّزول من السفينة؛ فتحسّر كثيراً على عدم تمكّنه من نزول السفير إلى البرّ، وقال إن مجموعة من الرسائل بُعثَت إلى هولندا بُغية التّوصّل بالأمر بالنزول، والتفاوض شفوياً مع الملك، وهو ما كان يتطلّب وقتاً أطول؛ على الأقلّ ثلاثة أو أربعة أشهر. وافق الباشوات على الأمر. لكنْ، كانت المشكلة تكمن في إيجاد وسيلة لتبليغ الملك بذلك.

قضيْنا تلك الليلة في حُزن كبير جدّاً، وكان الصباح بمثابة موعد توديع زوجي إلى الأبد، وكما لو تمّ انتزاعه [زوجي] منّي، لاقتياده إلى المذبح مثل كبش فداء. يمكن للقارئ الكريم أن يتصوّر مقدار الشّدّة التي وجدتُني فيها، لأنني كُنتُ قد بلغتُ الشهور الأخيرة من حملي بابني.

كان الكَهَنَة ورؤساء مصنع الحديد يسيرون في الأمام، وكان كل واحد منهم يحمل هدية، وقدّموا رشوة لأخ الملك، ووعدوه بمكافأة جزلة، إن احتفظ زوجي بحياته. لكنّه لم يكن راضياً قبْل أن يتمّ الاتفاق على ما سيتلقّاه. واتّفقوا على مبلغ ٢٠ دوكة وزوج جوارب من حرير، بالإضافة إلى هدية من الكَهَنَة ورؤساء أسرى الأمم كلها. وحينما اتّفقوا تقبَّلَ هدية الكَهَنَة، وكانت تتألّف من الشاي وآوانٍ خزفية وسُكّر ومربىّ. وكانت هدية المعلّم [الصانع التقليدي] عبارة عن بندقية جميلة، تقدّم بها أمام الملك. ليَّنَتْ تلك الهدية قلْب الملِك، لأنه كان جدّ متلهّف، ويمكن أن ينطبق عليه المثل القائل: البحر لا يقول: "شبعتُ." ولا القالب: "وأنا أيضاً."

غيَّرَ الملك حينها رأْيه، وعفا عن زوجي، وبدا لنا كما لو أنّنا وُلِدْنا من جديد. لم تكن الفرحة أقلّ من الحزن حينئذ، لأنني رأيتُ زوجي قد عاد من الموت أمام عينَيّ. لكن ذلك لم يدمْ طويلاً، كما سنرى.

تمرّدات حول العرش

استعاد الملك عافيته، واندلعت تمرّدات في البلاد، لأن البعْض كانوا يريدون ملكاً، والبعض الآخر يريدون ملكاً آخر. وكنّا نحن النصارى، بدورنا، نرغب بشدّة في ملك آخر، لأنه ولا واحد منّا كان قادراً على ضمان حياته حينها. فخلال الشهر الأخير من حكمه، طلب من واحد من أسرانا، كان يتولّى حراسة المخزن، ما إذا كان يوجد لديه واحد من إخوته، والذي كان مُكبّلاً بالسلاسل، من أجل أن يغسل بندقيّته بدمه. فهو لم يكن يكفيه السعي وراء حيواتنا، بل لم يكن يريد حتّى السماح لنا بكسْب قُوْتنا. إذ كانت حاناتنا مُغلَقة، ولم نكن نبيع الخمر إلا بشكل سرّيّ، ونحن نرتجف خوفاً، وكنّا نؤدّي الكثير من الغرامات، إذ كنّا قاب قوسيْن أو أدنى من الفقر الشديد. لكن الله مُدبّر حكيم، فقد حصل تغيير جديد بين الزنوج، إذ كان بعض منهم يرغب في تنصيب ملك، والبعض الآخر كان يريد ملكاً آخر(*). كما امتنع سكّان البوادي عن أداء الضرائب، وهو ما أجبر الملك على الذهاب إلى البادية [على رأس حركات]، كما فعَل يوم ٢٤ أبريل من سنة ١٧٣٦م. لكنه عاد على وجه السرعة يوم ٢٧ أبريل [من سنة ١٧٣٦م]، وودّع زوجته وأبناءه، وهكذا فرّ رفقة أخيه وابنه.

مولاي عبد الله ملكاً

حينما علمْنا بذلك، ونحنُ نجهل مَنْ هو الملك الذي سيتمّ الإعلان عن تنصيبه، انتابَنا الخوف من أن نكون عرضة للفتنة، وأن ذلك سينتهي

---

*) تقصد عبيد البخاري، وهو جيش من الزنوج، شكّله السلطان مولاي إسماعيل، وكان له نفوذ كبير في البلاد وفي القصر أيضاً، وقد كانت له اليد الطولى في الاضطرابات السياسية التي عرفها المغرب آنذاك، إذ كانوا وراء خَلْع الكثير من الملوك، وتنصيب آخرين. [المترجم].

بالسّرقة والنهب. هربْنا حينها إلى داخل القصر، وطمرْنا ما كُنّا نملك تحت التراب، ولبثْنا هناك إلى غاية فاتح ماي [من سنة ١٧٣٦م]. إذْ في صباحه الباكر، تمّ الإعلان عن تنصيب مولاي عبد الله ملكاً مع كثير من التهليل. كان ابنه حاضراً بالقصر، فأسرج الحصان، وأركبه إيّاه على سرج مذهّب ومظل فوق رأسه، وتمّ إعلانه وصياً على العرش، فانتابَنا حُزن كبير، لأنه أرهق النصارى بالأشغال الشّاقّة.



الفصل الخامس
الولاية الثانية لحُكم مولاي عبد الله
مولاي محمّد ١٧٣٦-١٧٣٨م

تهنئة والدة الملك

ذهبتُ على الفور إلى والدة الملك التي كانت مسجونة طَوالَ تلك الفترة.(*) وكُنتُ قد زرتُها بضع مرّات في السجن. وهو ما كان يسرُّها كثيراً. هنَّأتُها، وعدتُ بعْد ذلك إلى بيتي بالمدينة معتقدة أن السِّلْم قد عاد [إلى حياتنا]. لكن ذلك لم يتحقّق تماماً، لأنه قبل حلول منتصف النهار، تمّ تنصيب أربعة ملوك. كانوا يُنصَّبون، الواحد تلو الآخر، على العرش، ويُخلَعون، وهو ما سبّب في مناوشات، لا يُستهان بها. وظللْنا بضعة أيّام بلا ملك إلى غاية يوم ٨ ماي [من سنة ١٧٣٦م]، حين أُعلِن عن مولاي عبد الله ملكاً من جديد، إذ تمّ الإتيان به من تطوان، حيث كان يوجد رفقة جيش كبير، على بُعد ستّة أيّام من السَّفَر من المدينة. ففي مُنتصف يونيه، اقترب من المدينة [مكناس]، وجاء إلى قصره، لكنه لم يمكثْ به مدّة طويلة، إذ غادره بعْد ذلك، وذهب إلى خارج المدينة، حيث كان له قصر صغير، أو إقامة صيفية، تفصله عن المدينة ثلاث ساعات من السَّيْر، حيث استدعى الأسرى النصارى كلهم، وأمرهم بحَفْر منجم (كذا) حول القصر. فذهب النصارى كلهم إلى هناك، ولم تبقّ سوى تلك المرأة الإسبانية وأمّها وأنا وطفلي والكَهَنَة بدَيْرهم.

*) المقصود هنا السّيّدة خناثة بنت بكار، والدة الملك عبد الله، كان الملك علي الأعرج قد سجنها، وقبض منها مالاً كثيراً، وضيّق عليها في السجن، بعد أن نهب دارها، واستولى على ما فيها. انظرْ تاريخ الضعيف الرباطي، م. م، ج. ١، ص ٢٠٨-٢٠٩. [المترجم].

ضيق شديد

بقيتُ هناك رُفقة ابني، بينما لم نكن نتوفّر ولو على سِنْت واحد، يمكّنني من توفير قُوْتنا اليومي. كما أخافني بقائي وحيدة بالمنزل رُفقة المغاربة. وحتّى ذلك النصراني الذي كان يُقرِضنا بعض الدوكات، كان بدوره قد ذهب مسرعاً، ولم يكن هناك متّسع من الوقت لإخراج بعض المال من المطامير. وهي حُفَر تحت الأرض، خبّأنا فيها العديد من الأشياء الثمينة خوفاً من المسلمين، جَرْياً على عادة أهل البلد، حيث يُخبِّئ السّكّان كل شيء تحت الأرض خوفاً من العدوّ.

هروبي إلى الدَّيْر

في أجواء ذلك الضيق الشديد، هربتُ إلى الدَّيْر، ومعي كل ما أملك، فوفّر لي الكَهَنَة، على الفور، الغُرفة والمأكل والمشرب، بقدر ما كُنتُ أريد. ووجدتُني في حال أفضَل، لكنني كُنتُ مهمومة كثيراً نظراً لعلْمي أن زوجي يعاني غاية كثيراً رفقة وباقي النصارى.

أشغال شاقّة

أُجْبِرَ النصارى على الأعمال الشّاقّة، تحْت الشمس الحارقة، وعلى الحَفْر، وعلى تفجير القنابل، وكانوا بالكاد ما يتلقّون في طعامهم ما يعادل قرص خبز صغيراً، وأحياناً لا شيء تماماً، وفي الليل، كانوا ينامون في الهواء الطلق، يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء، ويشربون ماء ذا رائحة كريهة. ممّا أدّى إلى سقوط النصارى كلهم مرضى قبْل نهاية الشهر، بحيثُ لم تكن

هناك سوى ثماني أو تسع ساعات من العمل. ورفض الملك السماح لهم بأن يُقتادوا إلى للمدينة للعلاج، إلى أن رآهم يتساقطون مثل الحشرات. في تلك الحالة فقط، سمَح لهم بالذهاب للمدينة.

في يوم ١٧ يونيه، رحل ٢٢٠ نصرانياً، وفي ٢٠ شتنبر [من سنة ١٧٣٦م] لم يتبقّ سوى ١٠٠ نصرانيّ، أغلبهم مرضى. بينما فَقَدْنا ٢٤ هولندياً في يوم ١٢ غشت. كان زوجي قد عاد إلى البيت مرَّتَيْن مريضاً وهو ما كلّفني مالاً كثيراً، كي أتمكّن من علاجه في البيت.

فتْح حانتي

كُنتُ أوجَد مُنذ ستّة أيّام في الدَّيْر، حين كان الباشوات عائدين إلى المدينة من حَرْكَة.(*) حملتُ طفلي بين ذراعَيّ، وتوجهتُ على الفور إلى القصر دون علْم أيّ أحد، لأنّني كُنتُ موقنة أنهم سيمنعونني من الذهاب، وامتثلتُ أمام الباشا، وطلبت منه أن يمكّنني من إعادة فتح حانتي، حتّى أستطيعَ كسْب قُوْت يومي أنا وزوجي، وأتمكّن من الحصول على جِراية من الملك، وهو ما وافق عليه الباشا، لكنْ، مع ذلك، كانت هناك عصا في العجلة، لأن حارسنا، الحسود، عارض ذلك. فوجدتُ نفسي مضطرّة إلى التّخلّي إمّا عن جِرايتي، وإمّا عن الحانة، لقد كان في الجراية ما يكفي للموت، وليس للحياة، ولم يكن بمستطاعي تقديم أيّ شيء لزوجي. فاخترتُ الحانة. لكنني لم أكن أتوفّر على رأس مال، أبدأ به، فكان يتوجّب عليّ التّوجّه إلى واحد من النصارى، من أجل اتّخاذه كفيلاً لي،

*) كلمة مغربية تعني حملة عسكرية تأديبة، يرأسها الملك أو بعض القوّاد لإخماد بعض التّمرّدات القَبَلية. [المترجم].

فكُنتُ ألجأ إلى هذا من أجل أن أؤدّي للآخر. وفي تلك الحال، بارك الله لي بشكل مُعجِز، لأنيّ لم أربح فقط المال من أجل إعالة زوجي وأطفالي، بل كان بمستطاعي إرسال المأكل والمشرب لستّة أو ثمانية رجال، وهو ما ساعد مواطنينا على استرجاع قليل من قوّتهم. نجحت التجارة بشكل جيّد. فشغلّتُ خادمَينْ ونادلة، وكان ذلك يُكلّفني كثيراً من المصاريف. وحقّقتُ أرباحاً كثيرة ما بين ٢٤ يونيه و٢١ شتنبر [من سنة ١٧٣٦م]، وهو اليوم الذي هُدِّم فيه بيتي، وخُلع فيه الملك، وفقدتُ في ذلك اليوم نفسه ١٢٠ دوكة من مبيعات النبيذ وماء الحياة، كانت في البراميل،وأيضاً ٥٠ دوكة، بسبب هَدْم بيتي.

فرار والدة الملك

فرّت والدة الملك عند انبلاج الصبح يوم ٢٢ شتنبر [من سنة ١٧٣٦م]. حين رآها النصارى، اختبؤوا رفقة الحارس في الزوايا والحُفر على مقربة من النهر، إذ إن الملك كان ينوي اقتيادها، لذلك هربتْ في ذلك الوقت المبكّر، بحثتُ عنها. لكنْ، لم يُعثَر لها على أثر.

نحن بلا ملك

وها نحن أولاء من جديد بلا ملك، ولم نكن نتوفّر على أيّ خبر عن النصارى، بحيث كنّا نعيش أكبر فزع في الدنيا، في حالة ما إذا اقتادهم الملك. وفي اليوم الرابع، تلقّينا خبر نجاتهم. وفي اليوم نفسه، وصلوا إلى سجن الأشغال الشّاقّة.

ولد عربية ملكاً

وفي اليوم الموالي، تمّ تنْصيب سيدي محمّد ولد عربية(*) ملكاً، والذي كان صالحاً، بالنسبة إلى النصارى. لكنه كان ما يزال طفلاً في أعين أبناء البلد.

مجاعة

خلال حُكم هذا الملك، اجتزْنا فترة غلاء(**) يُرثى لها، امتدّت من سنة١٧٣٧م إلى يونيه ١٧٣٨م. قضى خلالها ٤٨ ألف نفر، بسبب اشتداد الجوع، وكان الأحياء يفترسون الأموات، بل أكلت الأمّهات أبناءهنّ. ولم يتبقّ لا كلب ولا قطّ، الكل تمّ أكلُه. كما كان الناس يُخرِجون عظامَ الحيوانات من الأرض، ويسحقونها بين قطعَتَي حَجَر، ويبتلعون دقيقها مع جُرَع من الماء، كما أكل الناس إسمنت الحيطان والتبن، كما البهائم، بسبب انعدام العشب.

كان يتلقّى أسرى الملك كل يوم عوض الخبز بعض الحفنات من الزيتون مَكسوّة بقشورها المنكمشة بعد أن استُخلص منها الزيت. البيت المَلَكي وحده لم يكن به خصاص في الطعام، فلم يمت الناس فيه جوعاً. وعلى الرغم من أنّه كانت تصل من بلدان النصارى سفن، بالمئات،

---

*) مولاي محمّد بن إسماعيل الملقّب بولد عربية، أمّه عربية من الشاوية، وبها يُعرَف. انظرْ تاريخ الضعيف الرباطي، م. م، ج. ١، ص٢١٥. [المترجم].

**) يقول الضعيف الرباطي: "وقويت الفتن، وارتفعت الأسعار للفتن ولقلّة الأمطار، وقاسى الناس الشدائد العظام من شدّة الغلاء، وماتت بالضيقة رقاب كثيرة، وقلّ الإدام، وانقطع اللحم، وبلغ القمح نحو ثماني موزونات للصّاع. ولم يزل الأمر في شدّة وازدياد فتن، وفرّت الناس كلّ الفرار." انظرْ تاريخ الضعيف الرباطي، م. م، ج. ١، ص٢١٦-٢١٧. [المترجم].

مُحمّلة بالقمح، لكن ذلك لم يقدِّم شيئاً كثيراً بالنسبة للمدينة المَلَكيّة، لأن قوافل الملك وقوافل سكّان المدينة كانت تتعرّض للنَّهْب من قِبَل البدو المتمرّدين على الملك، بحيث عَظُم الغلاء في مدينة مكناس أكثر من أيّ مكان آخر. وكنّا مجبرين، في تلك الأثناء، على دفع دوكَتَيْن لعشرة لشراء أرطال من حبوب القمح، وكنّا لا نحصل عليها دائماً، والموادّ الأخرى كانت على غرار ذلك. كما أن الناس لم يكونوا يتوفّرون على مال.

تحرير أسرى أوربيّيْن

لكن الله أتى بمعجزات بالنسبة إلى نصارانا الآخرين؛ فحرّر الملك، في البداية، الإسبانيّيْن في منتصف نونبر ١٧٣٦م. وفي العاشر من غشت من سنة ١٧٣٧م في بداية زمن الغلاء، سمَح للفرنسيّيْن بالذهاب، بحيث لم يتبقّ منّا، نحن معشر الأسرى الهولنديّيْن، سوى ٢٨ هولندياً وثلاثة برتغاليّيْن ممّنْ بقوا على قيْد الحياة، بفضْل لطف الله، رغماً عن أعدائنا. ولم نكن ننْعم بصحّة جيّدة، وكنّا بلا حكومة، وهو ما سيفهمه القارئ فيما بعد.

بُعيد ذهاب الفرنسيّيْن، لم يتبقّ من النصارى سوى نزر يسير، فأُجبروا، إذنْ، على العمل أكثر فأكثر.

محاولتي مقابلة الملك

أُجبر زوجي، الذي كان دائماً مُسرَّحاً لدى الملك، على العمل المصحوب بالضرب والتعنيف، وهو ما لم أكن قادرة على تحمُّله. وكُنتُ أودّ اغتنام فرصة وجود الملك خارج قصره. لأتقدّم إليه رفقة زوجي وابني،

لكنّنا لم نستطع الوصول إليه. كان الملك قد عاد إلى قصره، وكانت الأبواب مقفلة. وكُنتُ قد قطعتُ وعداً على نفسي بألا أعود إلى بيتِي قبْل الوقوف بين يَدَي الملك، وهو ما لم يتأتَّ لي؛ ومع ذلك، اتّخذتُ التدابير كلها، وسلكتُ السُّبُل كلها حتّى يستدعيني رُفقة زوجي وابني.

بين يَدَي الملك

وصلْنا، إذنْ، إلى القصر، حيث اقتادَني واحد من مندوبيه إلى الداخل رفقة ابني أمام الملك ونسائه، حيثُ حظيتُ باستقبال غاية في اللُّطف، وسألني عن مبتغاي. فأجبتُهُ متوسّلة أن يعفي زوجي من القيام بأيّ عمل، وأن يتمكّن من كسْب قُوتِنا أنا وابني، كما كانت عليه الحال أيّام حكم والده وإخوته الذين كانوا ملُوكاً. فهِم الملك أن زوجي كان قد أُجبِر على العمل دون أمْر منه، وكان غاضباً، وسألَني لماذا لم أخبره بالأمر بشكل مستعجل. قلتُ له بعْد رحيل الإسبان، على إثر تحرُّرهم، كُنتُ سأذهبُ إليه، إن لم يمنعوني، لأنّي كُنتُ سأتوسّل إلى الملك كي يهبَني بيت تلك المرأة الإسبانيّة، والذي كان قد اشتراه والده الملك(*) من أجل النصارى، وأعطاه لهم، كي يقيموا فيه تجارة، لأنه لم يكن من اللائق أن يقيم النصارى المتزوّجون في القنوط، بجانب باقي النصارى غيْر المتزوّجين، وأن البيت الذي كانت قد وهبتْه لي الملكة [تقصد أمّ الملك] قد هُدِّم، وإنني الآن مضطرّة للسَّكَن مع باقي النصارى.

استحسن الملك استعطافي كثيراً، وأجابني بأنه سيهبني بيتاً في المدينة، سيلائمني كثيراً. وطمأنني أنّ زوجي لن يُعنَّف بعد الآن، وأكّد

---

*) المقصود هنا السطان مولاي إسماعيل. [المترجم].

لي أن كل مَنْ سيكلّمني بسوء أنا زوجي وابني يمكن أن يفقد حظوته لدى الملك. لم أكن قليلة الدهشة من ذلك الاستقبال الودود والمناسب، فسلَّمني الملك كَأَمَة لواحدة من زوجاته الشرعيات، وأمرني بالمجيء إلى القصر كلّ يوم، وهو ما التزمتُ به.

كرم الملك

أرسَلني الملك حينها مع امرأتَيْن ومندوبيه في المدينة، بعد أن أكرمني أنا وابني، وكلّفهم بمراقبة مَنْ يُعنّف زوجي وابني. وهَبني حاكم المدينة منزلاً، وما أعجبني كثيراً هو أنه منحني تُرجمانة، يعني معلّمة اللغة، لأنني لم أكن أعرف جيّداً اللغة [العربية]، لكي ترافقني كل يوم إلى الملك كمترجمة. أعطوني حينها لهذه المهمّة مرتدّة إيرلندية، أسلمَت بعْد تعرّضها لكثير من التعذيب، واخترتُ بيتاً لباشا، حيث سأسكن. كانت أوامر الملك صارمة، ولم يكن بمستطاع أيِّ أحد أن يوجّه لنا كلمة سوء.

تثقيفي للملك

صرتُ أذهب، إذنْ، يومياً إلى القصر رُفقة ترجمانتي. وأمضي بمعيّتها أحياناً ساعة أو ساعَتَيْن لدى الملك، وكُنتُ أُحدِّثه عن أنواع النباتات النادرة كلها، وعن كل ما كان يأتي من البلدان الأجنبية من منتوجات، وعن المناظر والممالك والمُدُن، حيث كُنتُ أعمل على تكوين الملك تكويناً جيّداً. وأمكنني تحصيل ذلك من جرّاء أسفاري التي زوّدتْني بكثير من التجارب والخبرات، أُعجب بها الملك كثيراً، وجعلني أراه يوماً عن يوم.

إعفاء النصارى من العمل

وجدتُني في تلك الأثناء أنعمُ بأفضال الملك في فترة غلاء، يُرثى لها، وكُنتُ أحمل هَمّ إخوتي النصارى، الذين لم يكونوا يتوصّلون بجرايتهم من الملك،كما تقدّمتُ بطلب للملك، كي يتمّ إعفاؤهم من العمل لديه، وهو ما حصلتُ عليه يوم ١٤ شتنبر [من سنة ١٧٣٧م].

غمرَنا الملك أنا وزوجي وابني بكثير من الملابس الجميلة والشراشف. وبما أن زوجي كان يتوفّر على ما يكفيه من الملابس في تلك الفترة، كُنتُ أجلبها من القصر إلى أسرى آخرين. كما عملتُ على إخراج الملك من قصره حتّى جعلتُهُ يستعْرضَ الأسرى النصارى، وأعفاهم كلّهم من العمل.

ذيوع صيت حظوتي

جعلني ذيوع صيت حظوتي الكبيرة لدى الملك أُحرز شهرة كبيرة في البلد، لدرجة أنه إذا كانت لسُكّان البوادي شكاية، كانوا يتوجهون إليّ، وهم مُحمَّلون بالهدايا، كي أعرض على الملك شكواهم. لكن الله أنار قلبي، وكُنتُ أتذكّر أنّي مُجرّد أسيرة، فكُنتُ أوجّههم إلى الباشوات، بحيث لم يجدوا أيّ سند لديّ. [...].

قتال الخنزير

هكذا عُدْت بعد الزوال إلى الملك، من أجل متابعة قتال [الكلاب و] الخنزير. ما إن وصلتُ إلى هناك، منذ ساعة، حتّى ذهبْنا أنا والملك وزوجاته إلى المعترك مصحوبين بالكلاب والخنزير الذي كان حيواناً مخيفاً،

ويتوفّر على أربعة أنياب قادرة على قَضْم ساق إنسان. وكانت هناك أيضاً زنجية، حُكم عليها بالموت. فتمّ اقتيادها إلى معركة الخنزير، كي تفترسها الكلاب والخنزير. لكنني مكّنتُها من الحصول على العفو. فلم تدخل إلى المعترك. وعندما كانت الكلاب تتعارك مع الخنزير، سألني الملك ما إذا كان النصارى يستطيبون جيّداً أَكْلَ ذلك الخنزير. قلتُ له نعم، لكنْ، ينبغي أن يُذبح أوّلاً. بدت للملك صعوبة قَطْع رأس الخنزير، وقال إن ذلك غير مُمكن.

وبما أنّ ذلك الخنزير قد فتح بطن كلب بعضّة، أخرجتْ مصارينه كلها. عضّه كلب آخر، فكسر إحدى قوائمه، فكان يعرج تارة، ويتداعى تارة أخرى. قلتُ حينها للملك، إن كان هناك قنّاص، يطرحه أرضاً بسُرعة، ويجلس فوقه، سأتمكّن حينَها من فتْح حَنْجَرَتِه. لكن، كما جرت العادة، لم يكن هناك أيّ رجل، لأن نساء الملك لا ينبغي أن تُرينَ من قِبَل الرجال. فقد تلقّت الزنجية، المذكورة، الأمر بالإمساك بالخنزير، وهو ما فعلتْهُ. كانت سوداء مثل الحبر، لكنها بمُجرّد ما دخلتْ المعترك حتّى استحالت بيضاء كالثلج من شدّة ما تملّكها من خوف. صارعت الزنجية كثيراً من أجل الإمساك به [الخنزير] حتّى أتمكّن من النزول. كُنتُ أمسك بين ذراعَي ابنتي، وكانت تبلغ من العمر حينها سبعة فصول، أحكمتُ حملها على ظهري حتّى أستطيع الهرب. هكذا ذهبتُ للجلوس بجانب الزنجية فوق الخنزير، وذبحْتُهُ، لكن ذلك لم يتمّ إلا بعد مخاطرة كبيرة، لأنه لو لم نُسرِع بما يكفي، كان سيطرحُنا أرضاً، ويهاجمنا، خصوصاً، وأنه ظلّ يمشي وهو مذبوح حتّى تهاوى. عدتُ أنا والزنجية حينها إلى جانب الملك وزوجاته اللواتي كنّ مرعوبات، وكنّ قد نادينَ عليّ كثيراً للتّخلّص منه [الخنزير]. قال لي [الملك]:

- "أنتِ غزالة بنت غزالة."

استمرار المجاعة

في تلك الأثناء، واصلتْ تكاليف المعيشة ارتفاعها، ولم تكن هناك أيّ واردات أيضاً بالنسبة إلى الملك ولا لرعاياه، فاجتزْنا فترة شديدة الوطأة. لأن فصل الشتاء كان على الأبواب، ولم تكن هناك أيّ فواكه في الحقول وعلى الأشجار، إلى درجة أنه لم يتبقّ أيّ زاد للإنسان وللماشية التي وصل بها الأمر إلى أن افترستْ بعضها البعض في البوادي(*)، وشرع الناس في أكْل بعضهم البعض.

موتى بلا قبور

كانت الدّروب والطُّرُقات التي كُنتُ أسلُكُها كل يوم مغطاة بالجُثث، إذ مات الناس بأعداد كبيرة، إلى درجة أنه لم يعد بالمُستطاع دَفْنهم(**). تكدَّست الجثث في المقابر حتّى وصلتْ إلى مستوى قامة رجُل، ولم يستطيعوا وضعها على الأرض، ظلّت المنازل خالية، ونُهبت أبواب الحوانيت الخشبية، وكان الموتى ممدّدين نصفُهم مُلتهَم والآخر تماماً، وهلمّ جرّاً، إذْ كانت أوقاتاً مروّعة. واليهود الذين كانوا يسكنون خارج المدينة، بين الأسوار وأحد الأبواب، كانوا مؤلّفين من ١٤٠٠ أسرة، كانت تعيش هناك. هلكوا هم أيضاً بأعداد كبيرة، وهو ما صعّب عليهم دَفْن موتاهم حسب تعاليم دينهم؛ يعني غسلهم وكفنهم، ودفنهم بمهابة. فخبّؤوا أمواتهم تحت أنقاض المنازل القديمة المنهارة. فمن ١٤٠٠ أسرة تلك لم تتبَقّ سوى مائتَيْن. كان ذلك شبيهاً بتخريب [مدينة] القدس.

---

*) في هذا مبالغة كبيرة من ماريا. [المترجم].

**) يقول الضعيف الرباطي: "وفي تلك السنة، ماتت عامّة الناس بالجوع، وعجز الناس عن دَفْن موتاهم، وكانوا يرمونهم في الأزقّة والمزابل، وغير ذلك." تاريخ الضعيف الرباطي، م. م، ج. ١، ص٢٢٠. [المترجم].

من الصّعب أن أصف ما كُنتُ أراه وأسمعه يومياً، لم نكُن نستطيع شراء أيّ شيء من السوق دون أن نُحاط على الفور ببعض الجوعى البؤساء الذين كانوا يتربّصون بنا، كما كان يفعل الأسد بضحيّته. وإذا ما استطاعوا، كانوا يسرقوننا، ويهربون وهم يأكلون.

موتى من شدّة الجوع

من الصعب وصفُ أو سَرْدُ ما جرى في تلك الأوقات العصيبة للغلاء والمجاعة بلُغات الإنسان. فقد تمّ العثور في الضواحي، في الحقول وفي الجبال، على أناس ميّتين من شدّة الجوع، كانوا قد ذهبوا إلى هناك بحْثاً عن جذور الأعشاب لملء معداتهم الفارغة.

رغبة الملك في تحرير الأسرى

عندما رأى الملك الحال المُزرية لشعبِه، أشفَق عليه، فقلّص الضرائب. وبما أن البدو كانوا في حرب ضدّ بعضهم البعض، ولم يعد بالمستطاع جلب المحاصيل، قرّر الملك تحرير النصارى كلهم شرط أن يأتي مَنْ يسأل عنهم فقط. وكان من الصعب كتابة رسائل من المدينة إلى قادة الدولة السامين [الأقاليم المتّحدة] لأن الرقّاصين كلهم كانوا يُنهبون. وبناء عليه، أراد الملك إرسال زوجي مع مبعوث إلى باشا طنجة. من ثمّ، تمّ إرسال سفير بناء على نصائح يهودي، يُدعى ربي من كيك، والذي كان أخوه(*) قد ذهب سفيراً في سنتَي ١٧٣٠م و١٧٣١م إلى هولندا، من أجْل التفاوض

---

*) هو الهكار بن قيقي. [H] قمْنا بتقطيع الجملة من النّصّ إلى ثلاثة دون أن نعرف أن نهاية هذه تتعلّق بأحد الأخوَيْن أو الآخر. [F].

مع كُبراء المسؤولين هناك لافتداء الأسرى، حسب ما نصح به الملك.

لم تكن لزوجي رغبة مُلحّة في الذهاب وحده رُفقة الباشا واليهودي، دون أن يكون مصحوباً ببعض النصارى، كما أن الملك لن يوافقَ على ذلك، إن لم أشرح له الأمر. كان هناك أيضاً رجل من هامبورغ قد اتّفق مع اليهودي، وكان قد وعَده بعشر دوكات، إذا أراد أن يُبلّغ أمره إلى الملك، لكن جناحَي اليهودي كانا مقصوصينْ جدّاً؛ فلم يحصل على ما أراد.

إرسال زوجي إلى طنجة

حلّ يوم سَفَر زوجي. توصّل بجواز سَفَره من الملك، لينطلق في اليوم الموالي. حين رأى ذلك الهمبورغي أنْ لا حظَّ له في الذهاب مع زوجي، ألّب زوجي ضدّي، قائلاً إنني أنا هي السبب في عدم حصوله على الموافقة، وهو ما أغضبَني كثيراً. وعلى الفور، أسرجْتُ حماري(*)، وذهبتُ إلى القصر، والتمستُ من الملك أن يمنح زوجي مرافقاً آخر في السَّفَر، فاستجاب لطلبي، وأرسلني إلى الكاتب، من أجْل تغيير الجواز، وإدراج اسم الشخص الذي كُنتُ أرغب في إضافته. حرّر الكاتب الجواز، فحملتُهُ إلى الملك، كي يقوم بختْمه. وعُدتُ به إلى البيت، وهكذا تمّت تسوية المسائل كلها.

ذهبوا يوم ٥ نونبر ١٧٣٧م. وفي العاشر من الشّهر نفسه، وصلوا إلى طنجة لدى الباشا الذي أودَعَهم السجن. وطوّقت السلاسل الحديدية أعناقهم على سبيل الترحيب، لكنهم لم يُمضوا وقتاً طويلاً بالسجن، لأنهم اشتروا أنفسهم بأموالهم، بـ ٢٠ دوكة ذهبية، وتمّ تحريرهم، وذهبوا حينها

---

*) كان هدية من السلطان.[F].

إلى تطوان، ولبثوا بها إلى حين يذهب اليهودي رُفقتهم في نهاية مارس إلى سلا التي حلّ بها السّيّد القبطان جوست سيل (Joost Sels) بسفينته بُغية التفاوض حول قضية افتداء بعض الأسرى. وهو ما سنعالجُه، بتفصيل، فيما يأتي.

مزيداً من العناية المَلَكيّة

بمُجرّد ما غادر زوجي، توسّلتُ إلى الملك، كي يوافق على إعطائي جِرايتي، وهو ما وافق عليه، وكان بقيمة جِراية زوجاته الشرعيات نفسها؛ أربعة أنصاف كلغ من حبوب القمح كل يوم. وكان في خدمتي يهودية ونصراني. سرّحتُ خادمتي، وتوسّلتُ إلى الملك، كي يُوفّر لي أربعة نصارى، لأنني كُنتُ أسكن بالمدينة، وكان من المجازفة الإقامة هناك في أوقات اشتداد الغلاء تلك، وحتّى يكون بيتي حينها في مأمن من اللصوص كلهم، ومن المتوقّع أنّهم لا يقومون سوى بالسرقة والنهب. أذِن لي الملك باختيار عدد أكبر من النصارى، كما شئتُ. وهو ما فعلتُهُ، وتكفّلتُ بإطعامهم وكسوتهم.

واصلتُ الذهاب إلى القصر كل يوم، وكُنتُ أتابع صُحبة الملك وزوجاته وأنواع التسليات والتّنزّه كل يوم في الساحات. وكُنتُ أقضي هناك ليالي بأكملها رفقة ابني الذي كان محبوباً لدى الملك أكثر من ابنه. لأنه كان من الخطورة بمكان الذهاب إلى المدينة ليلاً، بسبب كثرة قطّاع الطُّرُق.

تزويدي بالسلاح

حين علم الملك بوجود العديد من قطّاع الطُّرُق في القصر وحواليه، وأنهم كانوا يسرقون أحياناً طعام الملك، ومن بيته، في واضحة النهار،

زوَّدني بمسدّس، وبكمّيّة من البارود والرصاص، وأيضاً بهراوة، كما أذن لي بقتْل أيّ شخص يتحرَّش بي لسرقتي. كُنتُ أسير، إذنْ، كل يوم ومعي مسدّسي مملوءاً بالرصاص من جهة، ومن الجهة الأخرى هراوتي وواحد من نصرانيّي، يحمل بندقية مملوءة ورائي، وآخر يحمل فأساً أمامي في الطريق نحو القصر.

رمي قطاع الطُّرُق بالرصاص

بعْد فترة قصيرة، توصّلتُ ذات مساء بأمْر مَلَكي يقضي بأن أذهب إلى القصر. اعترض طريقي بعض قطّاع الطُّرُق كانوا مختبئين وراء أكمات. فحين رأيناهم، رميناهم للتّوّ بالرصاص، فتحفّظوا كثيراً في الاقتراب منّا. لكنني لم أسمع أيّ كلام عن ذلك، بحيث كان بمستطاعي الذهاب ليلاً إلى القصر المَلَكي دون أن أتعرّض لأيّ تعنيف. وهو ما لم يستطعْ فعلَه ذوو الملك. إلاّ أن ذلك الشعب كان يَقتل الكلاب الصغيرة، لأنها تنبح كثيراً ولا تعضّ. فجندي من جنودنا يستطيع مواجهة ثلاثة من ذلك الصنف، لأنهم كانوا يخافون بشكل فظيع، لكنهم أقوياء حين يتعلّق الأمر برجل مهزوم.

فشل المفاوضات

[...](*) غيرْ أن سفيرنا،القبطان جُوست سيل، كان قدْ وصل [إلى سلا] منذ مدّة طويلة وهو ينتظر، وكان من المتوقّع أن يدخل مع الملك

---

*) قُمنا بحذف الحكاية المتعلّقة بهولنديّيْن سرقا بعض النقود من خزينة الأسرى الهولنديّيْن والذين، بفضل تدخّل ماريا تير متلن، أفلتوا من العقاب بالإعدام، وهو ما جعل مواطنيها يكرهونها. [H] على ما أعتقد لا يمكن أن يكون تدخّل ماريا لإعفائهم من العقاب دافعاً إلى كرههم لها، بل هناك دوافع أخرى، لم يتم الإفصاح عنها. [المترجم].

في مفاوضات. لكنّهما لم يتمكّنا من التّوصّل إلى اتّفاق، لأن الملك كان يريد المال لنفسِه، من جهة، ومن جهة أخرى كان الزنوج يريدون بدورهم تلك الأموال، فلم تسرْ الأمور كما يجب. ولم يطلب الملك سوى إعطائنا حُرّيّتنا، لكنّه لم يكن يعرف كيف يحصل على المال، وكان يستشيرني كثيراً، لكنّني لم أتوصّل إلى أيّ وسيلة، لأن الملك كان خاضعاً للزنوج، وهم مَنْ كانوا يستخلصون رواتبهم كل سنة، أو يؤدّون للملك. وكانت خزينة الملك فارغة، إلى درجة أنه تردّد فيما سيُقدِمُ عليه.

رغبة الملك في تحريرنا

وفي الأخير، قرّر الملك منْحَنا حُرّيّتنا(*)، أنا وزوجي وطفليّ ومعنا بعض الأشياء الثمينة كهدايا، يعني بعض جلود الفهود والأسود وزرابي جميلة وملابس من حرير ومناديل من الصنف الذي لا وجود له بأوربا. وهذا كله سيتمّ إنْ لم يكن هناك جواسيس، ينقلون ذلك كله إلى الزنوج، إذ إن الصديق الأكثر وفاء للملك، حاكم سلا، عَزَلُه الزنوج من مهامّه، وعوّضوه بحاكم آخر. وقد حلّ هذا الأخير، إذنْ، بالمدينة من أجل مقابلة مواطنينا للتباحث حول حُرّيّتنا، ولنَيْلها اشترط أن يعطوه مائتا دوكة، وأن الكَهَنَة هم مَنْ سيتولّون أداءها حينها. أقنَعَ ذلك الحاكمُ الملكَ جيّداً بأنه هو مَنْ قرّر إرسالنا، وتقديم بعض المال للزنوج الذين كانوا في البادية بجيشهم، يترأسون حركة رفقة الملك. وكانوا على بُعد ساعَتَيْن من المدينة. ونشروا في اليوم نفسه، ٢٢ يونيه [من سنة ١٧٢٨م]، أمراً يقول إن كل مَنْ يرغب في شراء القمح، يتوجّب عليه التّوجّه إلى الجيش

*) يوجد في النّصّ النفي، فقُمنا بحذفه.[F].

من أجل شرائه أو لكسبه، والذي لم يكن يبلغ سعره آنذاك سوى دبلتس (مقياس نصف كلغ) مقياس عشرة أرطال، كان حينها ما يزال يعادل في اليوم نفسه ٦٠ دبلتساً.

ذهبتُ، مرّة أخرى، في ذلك المساء نفسه، إلى الملك، كي أصف له ذلك، ومن أجل أن يختم جواز السفر حتّى نتمكّن من الذهاب في اليوم الموالي. وبما أن الملك لم يكن رائق المزاج حينها، أمَرني بالعودة في صباح اليوم الموالي.

تهيّأتُ من جديد، وذهبت في اليوم الموالي، وعند الخروج، وقعتْ تُرجمانتي ضحية للنهب، لكنها هربت، وتمّ إلقاء القبض على الملك في مُنتصف الليل، ووُضعَت له الأصفاد، فوجدْنا أنفسنا مرّة أخرى بلا ملك. استعجلتُ في مغادرة البيت المَلَكي للعودة مجدّداً إلى بيتي، حيث يوجد سجْن الأشغال الشّاقّة.

أذى النصارى

وبمُجرّد ما دخلتُ، وجدتُ نفسي عرضة لشتائم النصارى مجدّداً الذين كانوا يريدون الوشاية بي لدى الزنوج، بأنني أتوفّر على العديد من الأحجار الثمينة والذهب، كُنتُ حصلتُ عليها من الملَك، فنغّصوا حياتي، وجعلوها لا تُطاق، مقابل ما أمضيتُهُ من أيّام جميلة. لكن الذي يطارد الآخرين، لن يكفّ عن نفسه أبداً. وهو ما حدث لهم. لم أسلمْ، إذنْ، من تعسُّفهم، إذ كُنتُ مُجبَرة على تَرْك منزلي، وأن أُوضَعَ تحت حماية واحد من الباشوات، ذهبتُ إليه أحمل هدية أنا وطفلي ملتمسة منه

أنْ أكون تحت حمايته، إلى غاية تولّي ملك جديد، وأن إخوتي النصارى ألحقوا بي الكثير من الأذى، حكيتُ ذلك كله للباشا، ووعدني بالحماية إلى غاية مجيء ملك جديد. لكنني لم أمكث لديه سوى يومَيْن وليلة، إذْ إن الباشا وضع ترتيباته كلها حتّى يكون بمستطاعي العودة إلى بيتي مطمئنّة دون خوف.

وعود بالتحرير

إلا أن اليهود علموا أن أسرانا الهولنديّيْن وعدوا بـ ١٠٠ دوكة، كي يتمّ افتداؤهم، فتوجّهوا إلى بعض من أسرانا، من بين الأصغر سنّاً، والذين لم يكونوا يعرفون أيّ شيء عن أحوال البلد، وطيّبوا خواطرهم بكلام حلو، ووعدوهم بالحُرّيّة، إن استطاعوا مساعدتهم في إيجاد بعض المئات من الدوكات، كي يتمّ تقديمُها كهدية للقائد الأعلى للزّنوج. وقالوا إنّ ذلك كله يمكن أن يتحقَّق قبْل وصول الملك، وإنه ينبغي أن يتمّ البحث مجدّداً عن الملك في مكان بعيد، وهو ما يُمكن أن يستغرِق شهراً كاملاً، وحينَها نكون قد حصلْنا على حُرّيّتنا.

لكنْ، للأسف الشديد، كان ذلك بعيد المنال، كان في انتظارنا استعباد جديد، وغاية في السوء، كما سيلاحظه القارئ الكريم فيما بعد. كُنتُ أعرف ذلك تمام المعرفة. لكنْ، لم يكُن لي حينها ما أقوله، وأن ما سطّره أولئك الرجال كان ينبغي عليّ أن أتكبّده. تقرّر أن يُؤدّي كل واحد القَسمَ على أن يعطي كل ما يملك. فكّرتُ أن قَسَماً تحْت الإكراه سيُسبّب لي أذى، وساهمتُ بما ألهمني الله من أجلي ومن أجل طفليَّ الاثنَيْن حتّى نتمكّن من البقاء على قيْد الحياة، وأن نذهب بسلام.

إلى المعمورة

هكذا غادرْنا مكناس يوم ٢ يوليوز [من سنة ١٧٣٨م]، وفي اليوم الخامس من الشهر نفسه، وَصَلْنا إلى المعمورة، وهي الأخرى ميناء بحري، يوجد على مقربة من [مدينة] سلا، حيث وجدتُ زوجي ورفيقه اللذَيْن رحّبا بي أنا وأسرانا الهولنديّيْن الذين شكروه بسرور كبير. توصّلنا بخيام لقضاء ليلتنا. لكنْ، حين علِم التّجّار بالمتاعب كلها التي أذاقها لنا أسْرانا الهولنديون يومياً، آوونا أنا وزوجي وطفلَيَّ بترخيص من الحاكم.

تأليب يهودي ضدّي

لكنّهم [الأسرى الهولنديون] لم يتركُونا بسلام، فكانوا يسعون جاهدين إلى إقلاق راحتنا شيئاً فشيئاً، إذ ألّبوا اليهودي الذي قادهم إلى هناك ضدّي، فاستدعاني. وأنا، التي كُنتُ لا أعرف شيئاً، ذهبتُ إليه، فأساء مُعاملتي، وألحّ عليّ كي أدفع له المال، وبقدر ما كُنتُ أقول له بأنني لا أملك نقوداً، بقدر ما كان يُلقي على مسامعي الكلمات الجارحة والشتائم، مُدّعياً أنّني كُنتُ أتلقّى كل يوم دوكَتَيْن من الملك، كما كُنتُ أتلقّى حِلياً بأعداد وفيرة، وهو ما كان كذبة كبيرة. وهدّدني قائلاً: إنّه اتّخذ التّدابير كلها من أجْل الحُصول على المال منّي، وهو ما شرع في تنفيذه بُعيد ذلك.

كان السّيّد القبطان سيل قد أرسى أمام مرفأ المعمورة، وتفاوض مع التّجّار، وذلك اليهودي حوْل تحريرنا. بيد أنّهم لم يتمكّنوا من التّوصّل إلى أيّ اتّفاق.

في غُضون ذلك، كان اليهودي يذهب، من حين لآخر،إلى رومل(*) بالمكان، حيثُ كان يوجد الزّنوج على بُعْد يوم من السَّفَر من المعمورة، من أجل إعداد تقرير لكبير الباشوات حول المساومات مع السفير والقبطان سيل.

ابتزاز يهودي لي

كانت تُقيم في بيت الباشا يهودية دخلت الإسلام، ألّبها ذلك اليهودي ضدّنا، فتوسّلتْ إلى زوجات الباشا من أجل رؤية تلك المرأة النصرانية التي هي أنا. وهو ما وافَق عليه الباشا، سعْياً ورائي، وكان ذلك من تدبير اليهودي الذي كان يريد أن يذيقني المعاناة. وصلوا، إذنْ، إلى المعمورة، وأعطوا الأمر أهمّيّة كبيرة، كما لو أنني سأُحرَق أو أُقطَّع. كُنتُ أعلَم جيّداً بما كان يتعلّق الأمر، لأنهم كانوا قد فتّشوا عن المال في بيتي، وحينما لم يجدوه، سعوا إليه بالقُوّة. لو كُنتُ أتوفّر على المال حقّاً، لدفعتُهُ لهم عن طيب خاطر، كي أتخلّص من كل ما سبّبوه لي من مِحن. لكن المشكلة تكمُن في أنهم لا يقنعون، فلو أعطيتُهم اليوم كبشاً، سيأتون غداً مطالبين ببقرة، فلن يتركوني بسلام قبل أن يُنشِّفوني. منحتُهُم ما أملكه كله في هذه الدنيا، قائلة بأنني سأعود إلى بلدي عارية، لكنْ، دون جدوى. قال لي [اليهودي] إن لم أُعطه عن طيب خاطر، سينتزعُه الباشا منّي بالقُوّة.

---

*) الرباط حسب الناشر. [F] المقصود هنا مشرع الرمل، وهو المكان الذي جمع فيه المولى إسماعيل جيش البخارى، وهم عبيد، جلبهم من مناطق المغرب كله، يقع في منطقة الغرب قرب مدينة سيدي يحيى. [المترجم].

تشفّي بعض الهولنديّيْن

سيقَ بنا، في الصباح الباكر، أنا وزوجي وطفليّ [الاثنَيْن] إلى الباشا، وكنّا مصحوبِين ببعض من مواطنينا الذين قالوا مُتشفِّين:

- "عاهرة الملك هذه ستُحرَق الآن، إن لم ترِد إعطاء المال والحلي، ستُحرَق، ستُحرَق، ستُحرَق."

وبصَق واحد منهم ورائي. بقيتُ رابطة الجأش وأنا أدعو الله أن ينتقمَ لي منهم، وفعلاً، تلقّوا جزاءهم فيما بعد في البيت.(*) لذلك مَنْ يُعاني قليلاً، ويتحمّل، سينتصر على عدوّه لا محالة.

لقاء الباشا

هكذا وَصَلْنا فيما بعْد الزوال، لدَى الباشا، وظلّ زوْجي بجانب متاعنا والبهائم، أمّا أنا وطفلاَي، فسِيق بِنا إلى الباشا وزوجاته اللواتي استقبَلْنني بودّ، ودعونَ الله أن يُعجِّل بحُصُولي على حُرّيّتي. شكرتُ الباشا الذي أرسلني إلى زوجته التي جمعَ كبار المنطقة كلهم نساءَهم في بيتها قصْد رُؤيتي وكنّ كلّهنّ ودودات تُجاهي، ولم يُسببنَ لي في أيّ محنة عن قصْد، وقدّموا لي الطعام والشراب.

مضايقات يهودية أسْلمت

في تِلْك الأثناء، جاءتْني تلك اليهودية التي أسلمتْ، وتوجّهت إليّ باللغة الإسبانيّة قائلة:

---

*) لا نعرف إلى ما يُلمّح هذا.[F].

-"قولي لي أين تركتِ المال والحلي. لقد اعترف زوجكِ، وعُوقب بقسوة، وهم الآن منشغلون بسَلْخ جِلْده عن لحمه، وإن لم تُخبريني، سيأتون للبحث عنكِ، وسيعاملونكِ بالمثل."

حينما سمعتُ ذلك الكلام، اعترَى قلبي غَمّ كبير، بحيث بالكاد ما كُنتُ قادرة على النطق بكلمة واحدة حتّى طفرت الدموع من عينَيّ. حينها أجبتُ هكذا:

- "آه! فليتركوا زوجي. فهو بريء هو وطفلاَي، ويتركوني أموت مكانه. على الرغم من أنّني لا أملك مع ذلك أيّ شيء."

وحرنت الكلمات في حلقي.

أمضيتُ حينها ساعات عديدة جالسة هكذا واضعة طفليّ الاثنَيْن على رُكبَتَي، واللذان كانا يبكيان بشدّة رُفقتي، وعادت تلك اليهودية بشكاوى أخرى، وسبّبت لي في سوء معاملة جديدة، وبدا لي أن زوجي قد مات. عُدْت حينها إلى ذاتي، وتهيّأتُ للموت، ووضعتُ ابنَيّ الاثنَيْن بين يَدَي الله، وتذكّرتُ الطريقة التي سبَق أن أنقذني بها الله من الكثير من الأخطار، وأنه كان أبي وأمي منذ السنة الثالثة عشرة من عمري، وكان دائماً يرعاني. وقلتُ:

- "يا إلهي، ما تزال دائماً الإله نفسه، وأنا أعرِف أن لا شيء يحدث دون علمكَ، وأنكَ مُدبِّر حكيم، وإذا ما أتيتَ لتنتزع منّي أبنائي، فأنتَ أبوهم وحاميهم. أضعُهُم في رعايتكَ."

وتآسيتُ أمام الله، واستعدْتُ شجاعتي، وصرتُ على استعداد للموت، وتحيَّنتُ الفرصة لأمتثل أمام الباشا، وأُبرِّئ زوجي، لكنْ، تمّ مَنْعي.

في المساء، عادت مجدّداً تلك اليهودية التي أسلمتْ، وقالت بأنني الآن سأُقتاد، وأُساق إلى الباشا، لكنْ، ينبغي عليّ أن أبكي بثبات حين أكون هناك، حينها انتبهتُ إلى بُهتان ذلك الكائن الأنثوي. تقدّمتُ أمام الباشا، واستقبلني بودّ، كما في المرّة السابقة، وعامَلني بكثير من الاحترام، كما لو أنني لستُ أسيرة.

بيْد أن زوجي هو الآخر كان قد وصل، وكان يُكلّم الباشا، التفتُّ إليه، فلم أرَ أيّ أذى قد لحق به. فكنْتُ كَمَنْ وُلد من جديد، وانتعشَ قلبي. وبعْد انصرافنا من عند الباشا الذي شملنا بكثير من التبريكات، وتمنّى لنا الحُرّيّة، وقال لي بأنّه يتمنّى أن يتّفق مع سفيرنا. فذهبْنا إلى المكان، حيثُ تمّ اقتيادُنا لقضاء ليلتنا تلك. سألتُ زوجي ما إن كان قد عُومِلَ بسوء من قِبَل أحدهم. فأجاب بأنه لم يُكلّمه أحد، لا بخير أو شرّ.

مضايقات اليهودي

لم يهنأ لذلك اليهودي بال، وبما أنّ تكاليف المغربي كان ينبغي أن تُدفَع، شرع في تنغيص حياتي. كانت لي حقيبة تحْوي ملابسي وملابس زوجي وطفليَّ، فأفرغتُها [أمامه]، وقلتُ:

-"هذا كل ما أملك في هذه الدنيا."

لكنّه حينَما لم يجِد ما يُرضيه، لم يعْبأ بما في الحقيبة، وحينَها كان ينبغي إعطاء المال القليل الذي أرسله لنا قنصل قادس، والذي ضيّعه الأسرى الهولنديون، بسبب خطئه الخاصّ.


محمد خطاب

الفصل السادس

حكم مولاي مستضي(*)، مولاي زين والولاية الثّالثة والرّابعة لمولاي عبد الله ١٧٤٠-١٧٤٢م

العودة إلى مكناس

بعْد أربعة أيّام، تمّ اقتيادُنا إلى المعمورة. لم يكن مواطنونا يعتقدون في شيء آخر غير إعدامنا، فاعترتهُم الدهشة [حين رأونا]. فلم نُمضِ مدّة طويلة هناك، لأنه في الرابع من شهر غشت كان [مولاي المستضيء] قد دخل إلى القصر مَلِكاً. فاذكّر بعْد ذلك النصارى، وأرسل ما يكفي من البغال، من أجل إرجاعنا [إلى مكناس]. ونحن الذين كنّا نعتقد أنّنا تحرّرنا، عُدْنا عُراة إلى استعباد جديد.

حين وَصَلْنا [إلى مكناس] يوم ٢١ غشت [من سنة ١٧٣٨م] وجدْنا أنّه، طَوالَ مدّة غيابنا، سلب البرتغاليون الثلاثة الذين ظلّوا هُناك كل ما كان في حوزتنا. فأرجعوا لنا أسرَّتنا ومائدة وبعض المقاعد الصغيرة، وكان ذلك كل شيء.

إعادة تشغيل الحانة

سِيق بنا يوم ٢٢ [غشت] إلى الملك الذي منح لكل واحد من نصارانا محلاً متواضعاً بالقصر، من أجل حراسة المخزن، وشرعْنا في العَمل، لكن زوجي أُعفي من العمل. فلم يكن لنا أيّ دخل يُوفِّر لنا طعامنا، ولم نكن

*) مولاي المستضيء بن إسماعيل. [H]

نتوفّر على مال، لنبدأ به أيّ مشروع كيف ما كان. لذلك كان يتوجّب عليّ أن أعمل حتّى لا أموتَ جوعاً أنا وزوجي وطفلاي [الاثنان]. وشهدتْ تلك السنة محصولاً جيّداً من العنب، لكنْ، كان يُعْوزنا المال. وإذا بتجّار سلا قد حلّوا بمكناس حاملين هدية للملك، لتهنئته على تربُّعه على العرش. فتمكّنتُ بصعوبة من أن أقترض منهم مبلغ ٢٠ دوكة حتّى أستطيع عصر العنب أو محصول النبيذ. حصلْنا على العنب بثمن مناسب، فلم نؤدّ سوى ١٢ أو ١٤ ستيفر(*) لكل ١٠٠ رطل. وهكذا اشتغل زوجي بجَنْي العِنب حتّى يتمكّن من الحصول على بعض النقود، وتزويد الحانة بعد ذلك بنبيذ فوار، وبماء الحياة الذي يتمّ الحصول عليه بتقطير العنب، بحيث إنه بعد ثمانية أيّام أو عشرة، أصبحنا مجدّداً قادرين على كسْب قُوت يومنا.

مرض عينَيْ زوجي

كانت حانتُنا تقع خارج سَكَننا؛ وكان يقيم بها ليلاً نصرانيٌّ، كان يشتغل نهاراً بمخزن الملك، وفي أثناء النهار، يكون فيها زوجي. لكنْ، بالكاد ما استقامت الأمور حتّى أُصيب زوجي بمرض خطير في عينَيْه، فشُلَّت حركته مدّة شهرَيْن بالتمام والكمال، وظلّت الحانة مُقفَلَة، وهو ما لم يكن قلبي على استعداد لتحمُّله أبداً، لأنه في تلك الفترة كُنتُ ما أزال قادرة على فعْل أيّ شيء قبْل استسلام الملك للجيش. بالإضافة إلى ذلك، كان طفلاي الاثنان يعانيان كثيراً هما الآخران، وأنا أيضاً لم أكن أرى سوى بعين واحدة، وأن الصوم الكبير [تقصد رمضان] للملك كان وشيكاً، وسيمنَع

*) الستيفر هو العشرون لدى الفلوريّن. [F].

حينها بَيْع المشروبات الروحية، ولم يكن زوجي يرغب في أن أذهب إلى حانتنا. سعيتُ نحو أشخاص آخرين حتّى أتمكّن من إقناعه بأن يسمح لي بالذهاب إليها [الحانة] ومعي أهلي كلهم. كان ينبغي عليّ أن أقنَع بالقليل، بحيث إنّه لم تكن تتوفّر سوى إمكانية قليلة.

أرباح كثيرة

تكلّفتُ، إذنْ، بكل شيء، بتدبير البيت والحانة، وقد ألهَمني الله المزيد من القُوّة، وبارك لي كثيراً في تجارتي. وكسبْتُ في مدّة شهر ما يكفي لعصر الكثير من النبيذ ومن ماء الحياة أكثر من الذي كُنتُ أُنتجه من قبْل. فتمكّنّا من توفير كمّيّة معتَبَرَة جدّاً، وأيضاً ما يُطعمُنا خلال شهر رمضان، وفي الأخير، استطعتُ أن أجعل رأس مالي يُقدّر بـ ١٠٠ دوكة.

متاعب النصارى

تركَني النّصارى حينها، في سلام، إلى حدّ ما، لكن ذلك لم يدُمْ طويلاً. لأنّهم حينما عادوا من الجيش رفقة الملك، قاموا بالمستحيل من أجل أن ينتزعوا منّي الحانة، أو يمنعوني من الاشتغال بها. ويوماً عن آخر، كانت تحدثُ لي، من جديد، متاعب جمّة. ولو أنني لم أكن أعرَف بما يكفي، ما إذا كان الملك لطيفاً تُجاه النصارى أم لا. فقد خاطرتُ بمصيري، وذهبتُ إليه، كي أطلب منه أن يمنحني بيتاً في المدينة، لأقيم فيه حانة. انحنيتُ له حين قدّمتُ له طلبي. فأظهر لي موافقتَهُ على ما طلبتُهُ منه. لكن المغاربة والباشوات نصحوه، ورأوا أن في سَكَني وحدي بالمدينة مخاطرة

حقيقية، وبما أنني كُنتُ أتوفّر على بيت في سجن الأعمال الشّاقّة، سيكون بمستطاعي إقامة حانة به، لكن إخوتي النصارى اعترضوا على ذلك، فمنعُوني.

فتح الحانة مرّة أخرى

وبما أنّني لم أرتكب أيّ خطأ، ولم يجدوا ما يقولونه للملك، لأنّهم كانوا سيؤدّون الثمن غالياً حينها. فسمح لي الملك بأن أذهب أنا زوجي وابناي إلى سجن الأشغال الشّاقّة، من أجل إقامة حانة، وإذا ما سعى أحدهم إلى اعتراض طريقي، فما يكون عليّ حينها سوى الذهاب إليه [الملك] وتقديم شكوى له، وسيقطع رؤوسهم. هكذا عدتُ إلى بيتي، وواصلتُ تشغيل الحانة، لكن الآخرين لم يتوقّفوا عن فعل أيّ شيء، من أجل إلحاق الضرر بي وبزوجي.

كرم أمّ الملك

كُنتُ أتحيّن الفرصة للذهاب إلى أمّ الملك، فتمكّنتُ من ذلك دون عناء يُذكَر، بل صرتُ أذهب إليها كلّ يوم، وأيضاً إلى أخته التي كان لي تأثير كبير عليها، كما كانت تودّني، وأصبح بمُستطاعي أن أحصل منها على كل شيء، وكُنتُ لا أعودُ خاوية الوفاض، فكُنتُ أعودُ من عنْدها بكيس من القمح أو اللحم، أو المال أو الفواكه. وكُنتُ الأكثر حظوة لدى الأسرة المَلَكيّة كلها. لقد حدَث أن الملك كان قد تربّع على العرش منذ سنة، ولم نكن نشكّ أنه سيتمّ خَلْعُه.

الهُتاف لمولاي عبد الله

كُنتُ في زيارة للقصر المَلَكي منذ الصباح الباكر، وفي الخامسة بعْد الزوال، وصلتْ رسالة مُعلنة عن تنصيب ملك جديد، وتؤكّد أن الزنوج يحاصرون ذلك الملك الذي تمكّن مع ذلك من الفرار. حين توصّلتُ بذلك الخبر، ودّعتُ أمّ الملك وأخته حتّى اغرورقتْ أعيننا بالدموع. فواسيتُهُما قائلة إن تلك مشيئة الله، وإن ذلك يرضيه، وكانتا تعتقدان في ذلك بقُوّة، فأعطيتاني بعض المال للمرّة الأخيرة. وما كدتُ أخرج من باب البيت المَلَكي، حتّى وجدتُ الناس كلهم في الطريق، يهتفون بصوت عالٍ:

-"يحيا الملك عبد الله."(*)

وأنا التي لم أكن نائمة أو غافية، كُنتُ على وعْي بالخطر الذي يمثّله لي ذلك، فهتفتُ بصوت عالٍ:

- "يحيا مولاي عبد الله.

لكن مغربياً قال لي:

- "لماذا تهتفين بطول العمر لمولاي عبد الله وأنت قد خرجت للتّوّ من عند أمّ الملك المخلوع الذي تُحبّينه أكثر من مولاي عبد الله.

فأجبتُهُ على الفور باختصار وبحنكة، وسألتُهُ إن كان يعلم جيّداً أن الملوك يُنَصَّبون ويُخلَعُون، وأنا أعرف مَنْ نُصِّبَ ملكاً، وأرغَب في أن أكون أمَة له، وأن مولاي عبد الله كان حسن المعاملة معي ومع زوجي

---

*) كان هذا الأخير طوالَ تلك الفترة في المنفى لدى البربر. [H].

وابنيّ. فرضِي المغربي تمام الرضا، وتركني أذهب بسلام. وهكذا توجّهتُ من القصر نحو المدينة، وسط هتافات الفرح:

-"يحيا مولاي عبد الله!"

في تلك الأثناء، كان زوجي في المدينة، وكان في غاية القلق، وخُيِّل للحارس، بسبب تأخّري، أنه من الممكن أن يكون قد أُلقي علي القبض، وسُجنتُ. كما أني عرّضتُ نفسي للخطر حقّاً. لأنه حينما تمّت إزاحة الملك، كان الأمر أيضاً بالنسبة إلى خدّامه الذين هربوا من الجهات كلها من أجل الابتعاد حتّى لا يتعرّضوا للأَسْر. فهكذا ترك الحارس عمَلَه، وتوجّه إلى القصر، حتّى يتقصّى أخباراً عنّي. هكذا التقينا حذاء الباب الخارجي، وكان جدّ قلق، فقال لي:

- "ماريا، ألستِ خائفة؟ لقد تمّ الإعلان عن تنصيب ملك جديد وأنتِ ما تزالين داخل القصر، إنه لأمر مُعجِز أنْ لم يتمّ القبض عليكِ.

رويتُ له حينها كيف اجتزتُ القصر وأنا أهتف:

-"يحيا مولاي عبد الله.

وحكيتُ له ما وقع لي، حين علم الحارس بذلك، اعترتْهُ دهشة عارمة، فاقت فرحه. عبرْتُ حينَها المدينة متوجّهة إلى بيتي أمام اندهاش المغاربة كلهم من عبوري، وسألوني:

- هل خُلعَ الملك فعلاً؟

هكذا وصلتُ إلى منزلي، فوجدتُ الحزن والحداد يُخيّمان عليه، لكنْ، بمُجرّد ما تمّتْ رؤيتي مجدّداً، أنا وابني، حتّى عمّت الفرحة الجميع.

تهنئة أمّ الملك

أيّام قليلة بعد ذلك، عادت والدة الملك [عبد الله] إلى القصر، كي تتولىّ أمر المملكة ريثَما يعود ابنها. ذهبتُ فوراً إليها من أجل تقديم التهاني إلى العرش، فوجدتُ سيّدتي السابقة أمّ الملك المُزاح عن العرش، ومعها ابنتها. لقد كانتا هناك كمُجرمَتَيْن، تُسلِّمان كل ما كان في حوزتهما من ممتلكات المملكة إلى الوصية على العرش. لقد جُرِّدتا من كل شيء، وأُرسلتا إلى قصر آخر للملك السابق، حيث أُرسلَت نساؤه كلهنّ أيضاً، تمّ إعطاؤهنّ جراية ثابتة، كما نفعل نحن أيضاً، هنا [في هولندا] مع طاقم بواخرنا الوطنية، التي تكون عادة من الزبدة والجبن وشحم الخنزير، لكنه كان قليلاً جدّاً بالنسبة إليهما. لم تكن جرايتهما تحتوي سوى على رطلَيْن ونصف من الدقيق. وهما وحدهما اللتان كانتا تمتلكان بعض الأراضي التي يمكنهما أن يستفيدا منها، ويُمكن أن يخرُجا سالمتَيْن. لم تكن هناك سوى أشياء حقيرة، إذ كانت كافية للموت أكثر من كونها نافعة للحياة. أثنيتُ حينها على الملكة الجديدة، لكنّ ثنائي لم يكن لطيفاً كما كان مع الملكة السابقة، لذلك أهملتُ العودة إليها فيما بعْد، لأنني لم أحظَ بما يكفي من الترحيب.

عودة الملك تحْت ضغْط الزنوج

جاء الملك [عبد الله] بُعَيد ذلك، واستدعى، على الفور، النصارى كلهم، ودعاهم إلى العمل على وجْه السرعة. فكانت فرحتنا عارمة حين عاد زوجي مجدّداً إلى الخزينة، بينما أُجبر الآخرون على السَّيْر كثيراً يومياً مدّة ساعة من الزمن خارج المدينة للذهاب إلى عملهم، لأن الملك كان

مقيماً في المخيّم خارج المدينة، حيث نصب خيامه رُفقة قُوّاته الخاصّة، لأنه لم يكن يأمن الزنوج، فلم يجرؤ على الإقامة في القصر.

الملك الديب

أجبَره الزنوج على الانتقال للإقامة في القصر، وهو ما حصل في النهاية؛ لكنّه احتفظ مع ذلك بمُخيّمه بالبادية حتّى يتمكّن من الفرار إليه في أيّ لحظة شاء، لأنه كان يعرف جيّداً ما كان يريده الزنوج، لكنّه كان غاية في المكْر. وكان يُدعى "عبد الله الديب(*)"، وكان ذلك اللقب يناسبه جيّداً، لأنه كان أكثر مكراً من الثعالب.(**) لقد كان أحسنَ ملكٍ للبلد في نظر الجميع، لكنه كان يُكرِه النصارى على العمل بقسوة، ويحترس كثيراً من ألا يكون لهم أيّ زاد كما كان لهم في أثناء حُكم الملوك الآخرين. لقد كان مستبدّاً كبيراً بشعبه، فلم يكن يتباهى سوى بولايَتَي حكمه الأولى والثانية، لأنه كان قد قَتَلَ خلالهما ١٤٠٠٠ شخصاً. وها هو يُنصّب، للمرّة الثالثة، ملكاً خلال أربعة أشهر فقط، وها هو ذا يهرب إنقاذاً لحياته، فذهب إلى فاس، حيث كان قد أرسل أمّه من قبْل.

تنصيب ملك جديد

وهكذا تمّ الإعلان عن تنصيب ملك آخر جديد، يُدعى مولاي زين العابدين.(***) وهو قروي من البادية، كان قادراً على الحُكْم أحسن من ذلك

---

*) بالعربية ديب، ابن آوى. [F].

**) في الترجمة الفرنسية "الديب" بمعنى الثعلب (Muly le Renard). [المترجم].

***) مولاي زين العابدين بن إسماعيل. [H].

الملك. لكنْ، لم يُحتفَظ به طويلاً، لأنه هرب هو الآخر، وهو ما حصل بعد أربعة أشهر. لقد كان ماكراً بئيساً [ابن آوى منتوف الشَّعْر]، إذ حاول نهب النصارى واليهود والمغاربة، لذلك لم نحزَن على ذهابه.

عودة مولاي عبد الله

عاد مولاي عبد الله ملكاً للمرّة الرابعة في شهر دجنبر من سنة ١٧٤١م متّخذاً من فاس(*) مقرّاً لإقامته. وأصدر الأمر للنصارى كلهم، كباراً وصغاراً، بالالتحاق به دون استثناء، وهو ما تسبَّب لنا في حُزن كبير، لأنه كانت لنا بمكناس منازلنا وتجارتنا ومواعيننا وأوانينا ومعاصِرُنا وأدوات تقطيرنا وأدوات أخرى. ذلك كله ظلّ غنيمة بالنسبة إلى المسلمين، لأنّنا لم نستطِع حمْلها، وأصبحْنا في حالة سيّئة، كما لو أنّنا دخلْنا في استعباد جديد. بَلَغَنَا ذلك الخبر ثلاثة أيّام قبْل التأكيد الرسمي.

أمره النصارى الالتحاق به

كان زوجي غاية في الحزن، إذْ لم يكن قادراً على الأكل والشرب، شأنه شأن كثيرين من الأسرى. كُنتُ هناك رُفقة طفليّ اللذَيْن لم أكن قادرة على اصطحابهما إلاّ إذا كُنتُ ذاهبة إلى الوطن. كُنتُ حزينة بدوري، لكن ذلك لم يؤثّر فيّ كثيراً مثْل الآخرين. كُنتُ أُهيِّئ نفسي للسَّفَر، وكُنتُ أفكّر قائلة في داخلي:

---

*) حسب كتاب الاستقصا للناصري، ترجمة فومي ضمن أرشيفات مغربية، الجزء ٩، (١٩٠٦)، ص٢١٥، كانت تلك الإقامة بضواحي المدينة في دار الدبيبغ. [H].

- "سأُدبّر أيضاً مأكلي ومشربي، سأذهب إلى خمّ الدجاج، وسآخذ نصف دزّينة من الدجاج، وسأُقطِّع رؤوسها، وسأعدّها هي وأغذية أخرى وأشياء أخرى.

بينما كانت رؤوس الآخرين مغروسة في آذانهم، وغير قادرين على النطق، ولو بكلمة واحدة، وقد شتمتُهم قليلاً، لأنهم كانوا مثل الصبيان، وكُنتُ أُعوِّل على أن تدور عجلة الحظّ. لم أجزعْ، لأنه لا شيء أسوأ من الموت ينتظرنا، لكنني كُنتُ المرأة الحكيمة، وأنا وحدي مَنْ كُنتُ أتوفّر على قليل من التّبصّر. أما هم، فكانوا ينظرون إلى الأمور نظرة سوداوية، ولم يكونوا يفتقرون إلى القلق مثلي أنا التي كُنتُ تاركة كل شيء يسير حسب إرادة الرياح.

أمر الملك ببقائي بمكناس

في اليوم الثالث، صدر الأمر المَلَكي الصريح وقضى بأنه ينبغي عليّ البقاء مع ابنَيّ، أما النصارى الآخرون، فكان يتوجّب عليهم الذهاب إلى فاس. ارتمى الجميع في الحزن، وبشكل خاصّ زوجي، لأنّني كُنتُ سأطّلع بالمسؤولية عن ممتلكات الأسرى الهولنديّيْن كلهم. وأن تجارة معشر الأسرى الهولنديّيْن كانت متواصلة بواسطة اليهود الذين قدّموا لي حساباً عنها، فتكلّفتُ بتجارتي الخاصّة.

محاولة توصية فاشلة

غيْر أنّه حين حُدّد يوم انطلاقهم، توسّلتُ إلى حارس الملك، مع وعده بمكافأة جزلة، وأن يبذل قصارى جهده، لكي يحرّر الملكُ زوجي، وهو ما وعدني به، وهو ما حصل فضلاً عن ذلك.

بمُجرّد ما وصل النصارى إلى فاس، استعرضهُم الملك ثلاث مرّات، وفي كل مرّة، كان يُذكِّره الحارس بزوجي، لكن الملك أنذَره، إنْ ألحّ في التوصية مرّة أخرى بذلك النصراني، سيُطلِق عليه النار ببُندقِيتِه نحْو رأسه، لذلك لم يجرؤ الحارس على مُعاودة طلبه.

مرّ شهر، وانتشرت إشاعة تقول إن الملك خُلع عن عرشه مرّة أخرى، وهو ما سبّب لي في غير قليل من الحزن، لأنني كُنتُ أعرف أن زوجي لا يستطيع إنقاذ حياته عن طريق الهرب، بسبب بدانته المفرطة. بينما كان الآخرون يتمتّعون بالرشاقة، وكان بإمكانهم الهرب ليلاً، والالتحاق بمكناس، وهو ما كان يتطلّب يوماً من السَّفَر. وفي انتظار ذلك، لم أظلّ مكتوفة اليَدَيْن، ففي كل مرّة، كُنتُ أرسل إلى هناك الطعام والشراب، وكُنتُ أسألهم كيف هي وَضْعية الملك، إذ كانوا في موقع أفضل، يسمح لهم بمعرفة كل ما جدّ جديد، وحتّى يتمكّنوا حينها من تحيُّن الفرصة للعودة إلى مكناس.

أمْر الملك بعودة زوجي إلى مكناس

في تلك الأثناء، وبسبب معرفة الملك أنه لن يظلّ ملكاً لمدّة أطول، استدعى زوجي، فامتثل أمامه على الفور بخيمته، حيث كان مضطجعاً، وسأله إن كان هو ذلك النصراني الذي كان قد زوّجه، وسأله كم عدد أطفاله؟ وهل هم أولاد أم بنات؟ وما أسماؤهم؟ وحين أجابَه زوجي بصدْق، سألَه الملك أين تُوجد زوجته. فقال له إنّها بمكناس، وسألَه قائلاً:

-منْ يعتنِي بها هناك؟

فقال:

- الله.

فأشعر ذلك الجواب الملك بالرضا. فقال:

- "إنها لمعصية كبيرة، حسب تعاليم دِيْني ودِيْنك ودِيْن اليهود، أن يكون الزوج هنا وزوجته هناك، سأرسلُك إلى زوجتكَ، وابْقَيَا هُناك حتّى أُرسِل مَنْ يُحرِّركما، وستحصلان على حانة أنتَ وزوجتكَ وأطفالكَ."

كانت كلمة مواسية غير متوقّعة. وأصدَر الملك، على الفور، أمراً للباشا، يقضي بإرسال زوجي إلى مكناس، وأوصى الحاكم بأن يعتني به حتّى لا يلحقه أيّ سوء، وألا يضايقه أيّ أحد سعياً وراء ابتزازه، بأن يعطيه مالاً، كما كانت العادة في البلد. لم أسْتطِع فِعْل أيّ شيء أحسن من تقديم هدية إلى الباشا، لأنّه في حالات مشابهة يمكن أن تقدّم المزيد من الهدايا، وإن لم أُكافِئ أولئك الناس بما يرضيهم، فبمُستطاعهم الإساءة إليّ أكثر من ذلك بكثير. حدَث ذلك في اليوم الرابع بعد انطلاق زوجي. حين عاد فجأة في الصباح الباكر ليوم الثلاثاء إلى البيت. وعلى الفور، تجمّع حشد كبير من المغاربة في بيتي، واعتبروا تحرير الملك لزوجي معجزة. إذ إنّ حارسنا صرخ قائلاً:

- "ماريا، أنتِ، بكل تأكيد، محبوبة لدى الملك، لأنّني تحمَّلتُ الكثير من المحن، وكان الملك يريد رَمْيي بالرصاص."

المستضيء ملكاً جديداً ومحاولتي التّقرّب منه

ثمانية أيّام بعد ذلك، تمّ خَلْع الملك [عبد الله] مرّة أخرى. هرب النصارى خُفية، لأنّهم كانوا في خطر كبير، إن ظلّوا على مقرُبة مِنْه، وتمّ

الإعلان عن مولاي المستضي(*) مَلكاً جديداً للمرّة الثانية. لم أُضيِّع وقتي، وذهبْتُ مجدّداً إلى القصر من أجْل أن أُقدّم تهاني إلى أمّ الملك، بمناسبة اعتلاء ابنها العرش. حظيتُ باستقبال ودّيّ، حينها، ولم أعُد [من القصر] بيَدَيْن فارغَتَيْن. كانت مشاعر الصداقة تُجاهي تزداد، يوماً عن آخر، لدى أمّ الملك وأخته وأيضاً لدى الملك، بحيث كان لي تأثير كبير عليهم، وعملتُ ما في وُسعي من أجْل نَيْل حُرّيّتنا وحُرّيّة إخوتنا.

رغبة الملك في إرسالي أنا وأسرتي إلى مراكش

لم يُبْد الملك أيّ اعتراض على ذلك [تحريرنا]، بل بحث عن الوسيلة المناسبة لإرسالي هكذا أنا وزوجي وابنَيّ الاثنَيْن إلى أخيه خليفته بمراكش، إلى غاية وصول سفير جديد إلى سانتا كروز [أكادير]، ليُرسِلَنا أنا وزوجي وابنَيّ أحراراً، لأنه لم يكن يعرِف كم هي المدّة التي سيظلّ فيها مَلِكاً، وحينها ينبغي على النصارى العودة إلى المخزن، وإن كُنّا لدى أخيه بمراكش سنكون سالمين.

كان يوم انطلاقنا قد حُدّد، وجَمَعْنا أمتعَتَنا، لكن زوجي لم يُحبِّذ كثيراً ذلك السَّفَر البعيد جدّاً، والذي سيستغرق شهراً كاملاً بمعيّة طفلَيْن، وتحت حرارة شمس قاتلة، وهو ما جعلني أضطرّ إلى أن أتقدّم بمُلتمَس للملك، كي يُرخِّص لي بالبقاء، وهو ما وافَق عليه.

مداراة أمّ الملك وأخته

ألحَّت عليّ أمّ الملك وأختُهُ كثيراً في دخول الإسلام. وقالتا إنّه لذنب

---

*) مولاي المستضيء. [المترجم].

كبير أن أظلّ غير مؤمنة. لكنّني كُنتُ أجيبُهما، دائماً وبثبات، بأن ذلك الأمر لم تُرِدْه السماء بعدُ. وكُنتُ أُقبّل الأرض أمامهما. وحينما رأتا أنهما لن تجنيا منّي شيئاً، طلبَتا منّي تبنّي ابنتي التي لم تكن تبلغ حينها عامها الأوّل، حتّى تكون زوجة لحفيدها، وهو ما أجبتُها إذا ما حصل ذلك، فإنّي لن أستطيعَ الاعتراض عليه. وكان ذلك يُسْعدهما. وبعد ذلك، صارتا لا تناديان على ابنتي سوى عروس سيدي محمّد، وكان ذلك اسم ابن الملك. لم يُقلقني ذلك أبداً، لأنّني كُنتُ مقتنعة بأن الله سيُخلّصني من بين أيديهما، ما لم أكن أرغب في حكْيه هنا، فلدي أسبابي لذلك. لمْ أتحدّث مع زوجي عن كلّ ما كان يجري لي في بيْت الملك وأمّه وأخته، لأنّه كان سيمنعُني بكلّ تأكيد من الذهاب إلى القصر، بسبب كرهه للمغاربة الذين أذاقوه المعاناة قبْل وصولي إلى بلاد البربر.(*)

الطاعون

غير أنه تمّ الإعلان عن انتشار الطاعون [في المدينة] يوم ١٣ يونيه من سنة ١٧٤٢م. وكان يحصد كل يوم ١٠٠ قتيلا وأكثر. ذهَب الملك إلى البادية رُفقة جيشه إلى الخيمة التي نصبُوها هناك، ومَنَعَ أيّاً كان من أفراد جيشه أو من النصارى الموجودين رُفقته من الذهاب إلى المدينة. لكن أولئك كانوا مع ذلك يذهبون إليها خُفية. لم يكن السّكّان أحراراً، بحيث إن الطاعون كان جدّ خطير، لكن الملحوظ جدّاً، أن نصارانا كانوا يقيمون تجارتهم مع المغاربة بشكل يومي، وكنّا مضطرّين إلى عبور المدينة، من أجل شراء الطعام، خصوصاً وأنّنا كنّا نسكن في قلب المدينة. وفي الوقت

---

*) تعني أن زوجها عانى من الأسْر في المغرب مدّة طويلة قبل قدومها إلى المغرب. [المترجم].

الذي كان اليهود والمغاربة، مُموِّلونا، يموتون كلهم بالطاعون، لم يقع أيّ واحد من النصارى مريضاً.

كُنتُ أتمتّع برخصة للذهاب إلى القصر رُفقة خادمتي، وكانت يهودية، وكلّما عبرتُ المدينة، كان المغاربة يسألونني ما إذا كان الطاعون منتشراً بيننا نحن النصارى؟ وكانوا يسألونني حينها ما العمل لتجنّبه؟ فكُنتُ أجيبُهم، ليس لدينا ما ننصحكم به، بل إن ذلك يتعلّق بمشيئة الله، لذلك سَبِّحوا له. لكنْ، كان الطاعون ما يزال منتشراً بينهم، مَنْ كان يقول بأننا كنّا كفّاراً، وإن مولاي محمّد [تقصد النّبيّ] لا يعرفُنا، ولا هم أنفسهم، لذلك سلّط عليهم محمّد هذه النكبة على الأرض.

ففي الوقت الذي كان فيه نصرانيّونا جدّ حزينين ومُغتمِّين من خشية أن تُلاحقهم عدوى الطاعون، ويموتون، كُنتُ أنا، عَلى العكس، مُفعَمَة بالشجاعة، وكُنتُ ما أزال آمل بحزْم في نَيْل حُرّيّتي قبْل حلول نهاية السنة، وهو ما كان مثار سخرية الكثيرين منهم. وواصلتُ الحديث عن موضوع حُرّيّتنا. لقد أتعبوني كثيراً، لدرجة أنّني ذات يوم كُنتُ على وشْك الاضطراب. لكنّني خلال تلك الأزمة الباعثة على الكآبة، كُنتُ أحملُ إنجيلي بين يَدَيّ، حيثُ كُنتُ أجد دائماً خلاصي ومواساتي. عنْد فَتْحي للإنجيل، وجدتُ فيه على الفور، وأنا أقرأ، المواساة، لأنني منذ الوهلة الأولى، وجدتُ هذه الكلمات:

"ألف وعشرة ألاف سيقعون في يدك اليسرى، وفي يدك اليمنى سأحميك."(*)

قمتُ من مكاني، وقلتُ:

---

*) المزمور ٩١، الآية ٧، "يَسْقُطُ عَنْ جَانِبِكَ أَلْفٌ، وَرِبْوَاتٌ عَنْ يَمِينِكَ. إِلَيْكَ لاَ يَقْرُبُ."[F].

- "مَنْ تخشين غير الله؟ ألا يأتي كل شيء من الله؟ الحياة والموت؟ اقرؤوه في كلامه، ستجدون هذا هناك: ألف وعشرة آلاف سيقعون في يدك اليمنى، والله يحمينا بيده اليمنى".

ترون كل يوم تساقط مئات من أعدائنا، وبيننا ما تزال بركة الله سارية. لم يُمسسْ أيّ أحد منّا، كما سنحصل على حُرّيّتنا ببركة الله. لكن بعضهم [الأسرى] استخفّوا بالأمر، لذلك هم ما يزالون، الآن، يرزحون تحْت نيْر الأَسْر بذلك البلد.



الفصل السابع
الافتداء والعودة الشّاقّة إلى الساحل
١٧٤٢-١٧٤٣م

الافتداء

خمسة عشر يوماً بعْد ذلك، وصل رقّاص من طنجة ومعه رسالة من التاجر دون لويس باتلر (Don Louis Buttelaar)(*) حاملاً لنا أسْعَدَ خبَر؛ فحواه أن القبطان لومبري (Lambregt) قبطان السادة الكبار اشترى من الباشا الأسرى الهولنديّيْن الذين كانوا يوجدون في طنجة، كما اتّفق معه على أن يرسل إليه، في ظرف ستّة أسابيع، الأسرى الموجودين لدى الملك [في مكناس]. كُنتُ وحيدة في حانتي حين جاءني الرقّاص. أمسكتُ الرسالة، لكنّني لم أفتحْها، لأنها كانت موجّهة إلى معشر الأسرى [الهولنديّيْن]، وشرعتُ أهتفُ وأصيحُ بلا توقّف:

- "حُرّيّة، حُرّيّة،"

لذلك اجتمع [حولي] الكثير من أبناء وطني. واعتقدُوا أنني صرْتُ مجنونة وغريبة الأطوار، قبْل أن أفتح الرسالة. لا أحد غيْري كان بمُستطاعه قراءتها، لأنها كانت مكتوبة باللغة الإسبانية. قرأتُها عليهم، لكنهم لم يُصدِّقوا ما جاء فيها، ولم أستطع إقناعَهم، على الرغم من أنّ الرقّاص حمَل إليْنا الخبَر.

---

*) لويس باتلر، أخ فرانسيس باتلر، قنصل الأقاليم المتّحدة في جبل طارق.[H].

توديع الملك وأمّه وأخته

بعْد انصرام حوالي خمسة أسابيع، [وتحديداً] في يوم ٩ نونبر [من سنة ١٧٤٢م] تمّ استدعائي أنا وزوْجي وطفلَيّ الاثنَيْن للمثُول بين يَدَي الملك الذي وافق على تحريرِنا نحن الأربعة، وسلّمَنا لمبعوث باشا طنجة، مَنَحَنا الملك حُرّيّتنا عن طواعية، لكنّه كان يريد الاحتفاظ بالآخرين، إذْ إنّ المبعوث لمْ يُلحّ كما يجِب في الحصول على الآخرين أيضاً.

في اليوم الموالي، أصدَر الملك أوامره القاضية بحضور الأسرى النصارى كلهم، وتمّ اختيار تسعة آخرين أيضاً سيُحرّرهم [الملك] تحْت إلحاح مبعوث الباشا. وفي اليوم الثالث، طلب الآخرين، بحيث أصبحنا ١٣ ممّنْ وقع عليهم الاختيار المَلَكي. وبعْد صعوبات جمّة، قام الملك بتسويةٍ أخرى، يعني إذا أرسل الباشا تسعة أسرى نصارى، سيعطيه الباقي، والذي كان عشرة في المجموع. وهكذا حصلْنا على حُرّيّتنا نحن الأربعة عشر الذين كنّا هناك.(*) بمُجرّد ما مَنَحَنا الملك حُرّيّتنا، عمل على إحضار زوجي وابنتي الصغرى التي كان يحبّها حبّاً جمّاً، وكان يلعَب معها كثيراً. لم يستطع زوجي التّكلّم أمام الملك من جرّاء الفرحة، أمّا أنا فكُنتُ حاذقة في تقديم المجاملات على الطريقة المغربية، وكُنتُ أُحسِنُ التّصرّف، وأُعجب به تمام الإعجاب. وقال:

-"صحيح ما رأيتُ، هذه النصرانية جديرة بأن تكون أميرة."

بذلك اللقب ودَّعتُ الملك.

---

*) هذا المقطع غامض. يبدو من وثيقة موجودة بالأرشيف مستنسخة بالصفحة ١٤٤ من طبعة هاردنبورغ أنه تمّ إطلاق سراح ١٤، أي: ماريا وأسرتها، ثمّ تسعة آخرين. العشرة الباقون تمّ استبدالهم عشرةَ أسرى آخرين. [F].

في اليوم الموالي، ودّعتُ أمّه وأخته. بدا هذا التوديع كما لو كان بين أبَوَيْن وواحد من أبنائهما. بَكَتَا معاً، وأعطيتَاني دوكَتَيْن من أجل السَّفَر، وتمنّيتا الاحتفاظ بي، لكن ذلك كان مستحيلاً، لأنّ الملك كانت له التزامات لدى الباشا، وكان خائر القوى. وكان مولاي عبد الله موجوداً في فاس، وكان منشغلاً بتهدئته، إذا كان المبعوث مستقرّاً في إمبراطوريّته، ومن أجل ذلك، جاء الباشا ومعه جيش معتَبَر لمُساعدة الملك على محاربة أعدائه.

إلى تطوان

شرعْنا في سَفَرنا في يوم ١٦ دجنبر [من سنة ١٧٤٢م]، وأُجبرْنا على القيام بدورات كبيرة، عبْر طُرُق غير آمنة، تجنُّباً من الوقوع في قبضة مولاي عبد الله، وإلاّ سنظلّ في الأسر مع مَنْ بقوا. تزامن ذلك مع فصل الشتاء، بأمطاره [الغزيرة] ورياحه [القوية]، لدرجة أن البلاد كانت وعرة العبور. كان الماء، كل يوم، يصل ارتفاعه إلى مستوى رُكبنا في الضايات، وأيضاً بالنسبة إلى بهائمنا التي كان يبلُغ ارتفاع الماء جذوعها. كُنا نقضي الليل، كما النهار، في العراء. وفي أغلب الأوقات، لا يتبقّ لنا خيط يابس من ملابسنا على أجسامنا.

كُنتُ نسجتُ خيمة، كي نقضي بها ليلَتنا. لم نكُن مباشرة تحت السماء، ومع ذلك، كنّا بلا مأوى يَقِيْنَا من الماء، لأنّ تربة ذلك البلد طينية، لا تمتصّ الماء كله، وفي بعض الأماكن، وصل عُلو الماء ارتفاع راحة اليد. وعلى الرغم من بحْثنا عن أماكن جافّة لنقضي بها ليلَتنا، فلم نكن نستطيع

التّقدّم، لأن الأمتعة التي كنّا ننام عليها كانت مثل الماء، وأيضاً ملابسنا التي على أجسامنا، والأغطية نفسها، إذ كان الأعلى كالأسفل، كنّا وسط الماء في ذلك المكان، كما لو كنّا داخل حمّام. كان طفلاي، في بعض الأحيان، نصف ميّتين من شدّة البرد والرطوبة. فالصعوبات والأخطار التي تعرّضْنا لها خلال رحلتنا يعجز اللسان عن وَصْفها.

لدى الباشا

وَصَلْنا يوم ٣٠ دجنبر [من سنة ١٧٤٢م] لدى الباشا(*) الذي استقبلَنا بطلقات بنادق. وزوَّدنا بخيمة فخمة، تمكّنّا من قضاء ليلتنا تلك تحْتها كُلنا،وكُنتُ بعدها أمَّنتُ ما كنّا في حاجة إليه من طعام. لأنّني كُنتُ إذا احتجتُ إلى أيّ شيء، كُنتُ أتوجّه إلى القائد، وليس الآخرين، لأخْذ كل ما كُنتُ في حاجة إليه. اهتممتُ بنفسي بحذر من الآخرين. لأنّه كان للمرأة الكثير من الامتيازات أكثر من الرجل. وكُنتُ محبوبة ولبِقة، وكانت كلمتي مسموعة كثيراً، وبالتالي لم يكن ينقصني أيّ شيء.

في اليوم الموالي، واصَلْنا السَّفَر رُفقة الباشا والجيش كله، الذي كان مُكوّناً من ١٠٠ ألف رجل، حسب ما قيل. بالفعل لقد كان جيشاً مُعتَبَراً، لكن كثيراً من الناس هناك لم أكن آمنهم. كان الطقس جميلاً في ذلك اليوم، ومرَّ السَّفَر بشكل رائع على وَقْع أصوات قَرْع الطبول والنقارات وصوت الأبواق والمزامير وأصوات أخرى، ورأينا هناك فلاحين فُقراء، أذرُعُهم مربوطة إلى ظهورهم، عُراة ومسلوبين يسيرون، عشرة عشرة، مُكبَّلين بسلاسل.

---

*) لم تحدّد المكان الذي التقوا فيه بالباشا. [المترجم].

في المساء، قبْل غروب الشمس، وَصَلْنا إلى سهل كبير، نُصبت به الخيام، حيث خلدْنا للراحة. كان الباشا يتوفّر على ١٤ قطعة مدفع، أطلقها ليلاً داخل المخيّم، احتفالاً بخُروجِنا بفرح من السنة الماضية [١٧٤٢م]، واستهلالِنا بشكل جيّد للسنة الجديدة [١٧٤٣م].

في يوم ١ يناير [من سنة ١٧٤٣م]، كُنتُ أريد الذهاب إلى الباشا، كي أطلب منه كبشاً، لكنهم أتوني به قبل أن أذهب إلى الباشا الذي سمع الكثير من الكلام عنّي، جعله جدّ مُتشوّق للحديث معي، لذلك أحضرَنا كلّنا أمامه. وحدَّثني أمام الناس كلهم، وحينما انتهت محادثتنا قال لأولئك الناس: "في الحقيقة، هذه المرأة النصرانية جديرة بأن تكون مَلِكَة."

كُنتُ جدّ لبقة ومؤدّبة في أثناء الكلام، وكُنتُ أيضاً مقتدرة مثْل أيّ شخص ذكي جدّاً من رجال البلد، كما كُنتُ أتمتّع بالقدرة على تقديم الثناء، بحسب درجة أيّ شخص. كُنتُ مرتاحة، ولا أخاف حين أتكلّم، إذ كُنتُ قادرة على التّجرّؤ على قول ما يعجز عن التفكير فيه شخص آخر من أبناء البلد. استأذنتُ من الباشا الذي قدّم لي الكثير من التهاني والتبريكات، وشكرتُهُ. استغرب المغاربة كثيراً أمام الباشا، لأنهم لم يسمعوا أو لم يروا أبداً امرأة تعرف قول كل شيء مثلي، وهو ما أسعدَنا جميعاً، لأننا كنّا ننال، إذنْ، بعض الأشياء التي كان يصعب علينا الحصول عليها بطريقة أخرى.

تدحرُجات

استأنَفْنا السَّيْرَ مُجدّداً في اليوم الثاني عشر من السنة الجديدة، واصَلْنا

سفَرَنَا دون حدوث أيّ أخطار تُذكَر، عبْر جبال، وسلكْنا مناطق متوحّشة، غابات وأودية وأنهار منحرفة عن مجاريها، ولم نكُن نستطيع الانتباه إلى بعضنا البعض، بسبب الحالة السّيّئة للطُّرُق التي كنّا نجتازها، إذْ كنّا، في بعض الأحيان، نفقد الرؤية تماماً. وأحياناً أخرى، كنّا نتدحرج نحن والبهائم التي كنّا نمتطيها من أعلى الجبال إلى أسفلها، ثمّ كنّا نتدحرج مجدّداً داخل الأنهار، فيصل الماء إلى أعناقنا. وقع لي ذلك الأمر عدّة مرّات، لأنّني كُنتُ أضَع طفْلي فوق رُكْبتي، وكنْت أسوقُ مطيّتي بصُعوبة. والمغربي الذي كان يُرافِقُني كان جدّ أرْعن، إذْ لم يكُنْ يعمل سوى على إثارة المطيّة، سواء كانت حال الطُّرُق جيّدة أو سيّئة، بحيث إنني كُنتُ أسقطُ كثيراً بالأنهار، وأتدحرج من الجبال، ولم يخلُ ذلك من مخاطر. صار من الصعوبة بمكان التّعرّف على ابنتي تماماً من جرّاء ما أصابها من جروح وشجّات في اليَدَيْن والوجه [التي شوّهتْ ملامحها] بسبب وحشية الأدغال، كما نال الآخرون حظّهم أيضاً. فمَنْ كانوا يستطيعون المشي ظلّوا سالمين، وتمكّنوا من الاحتراس، أمّا أنا وابنتي الصغيرة، فلم نكُن نستطيع السَّيْر راجلَتَيْن. وفي الليلة الأخيرة، اعتقدتُ أنني لن أخرجَ سالمة منها أبداً.

سافَرْنا حتّى وقت متأخّر من الليل، وكان يتعيَّن علينا أن نهتدي بصرخات مَنْ كانوا يتقدّموننا، وكان ذلك في جبال ذات منحدرات حادّة، وعالية مثل السماء. لم تستطع مطيّتي ومطايا أخرى التّقدّم، وكأن هناك مَنْ كان يدحرجها من أعلى الجبل إلى النهر، وظلّت ممدّدة به. أمسك المغربي حينها العنان من يدي، وقاد بغْلتي من أجل صعود المنحدرات الشديدة، وهو ما كان يُؤمّنني. وإلا كُنتُ سأتدحْرج أنا وبغلتي والكل. لكنْ، بفعل ارتفاع المنحدر وحركة المطيّة، وبما أنه لم تكن لي سوى يد واحدة، لأتماسك، انزلقتُ إلى وراء ظهر بغلتي، وانقلبتُ ثلاث مرّات أنا وابنتي بين

ذراعي على طول المنحدر، حيث بقيتُ ممدّدة. في تلك المرّة، وقعتُ على ظهري، وهو ما ضايقني كثيراً. وكُنتُ ما أزال أستطيع إسماع صوتي، قليلاً، وهو ما أنقذني، لأنّهم انتبهوا إلى أنني لستُ فوق مطيّتي، فهبّوا لنجدتي، ولولا ذلك، لكُنتُ مُجبَرة على البقاء ممدّة هناك، وكُنتُ سأكون فريسة للخنازير وحيوانات مفترسة أخرى، كانت زائدة عن الكفاية هناك. وزوجي الذي أثاره الضجيج، كان أيضاً قريباً، لكنْ، كان عليه لكي يجدَني الاهتداء بالصوت، وعبْر التّلمّس، كما نفعل في الظلام. وأخيراً تمكّنوا من الإمساك بي، ورفعوا ابنتي التي كانت شبه ميّتة بين ذراعي من جرّاء قُوّة انضغاطها بي، ثمّ بعْد ذلك، اقتادوني على طول المنحدر الشديد، وأنا فوق مطيّتي التي تدحرجْت من فوقها مرّتَيْن أخرَيَيْن، مثل سهْم منطلق من قوس، بسبب ما كانت تُحدثُهُ المطيّة من قفزات، كي تجتاز الأنهار التي كانت أحياناً مرتفعة [يتعلّق الأمر بضفاف] من جهة، ومنحدرة جدّاً من الجهة الأخرى، بحيث إنني أطلقتُ ثمانية أقدام إلى الأمام، وبسبب عدم حَذَر المغربي الذي كان يقود مطيّتي. اعتقدتُ أنّها آخر ليلة في حياتي. لم أُرِدْ حينها معاودة ركوب مطيّتي، ولم أكن قادرة أبداً على السَّيْر من شدّة تأثير السقطة. ثار زوجي في وجه المغربي، وأعاد إليّ ابنتي، وعاقَب كثيراً ذلك المغربي الذي لم يستطع استعادة أنفاسه إلا بصعوبة. كنّا نتقدّم حينها بيُسر إلى غاية وصولنا إلى القرية التي قضينا بها ليلتَنا.

استأنفْنا رحلتنا في صباح اليوم الموالي، وكانت الطريق ما تزال خطرة جدّاً، إذ سبّبتْ لنا في فقدان دابّة أخرى بحمولتها بمنحدر يبلغ ارتفاعه ما بين ٢٥ و٣٠ قَدَماً، وأُجبِرْنا على السَّيْر عبْر ممرّ ضيّق، ليس أعرض من قَدَم كبيرة، على طول المُنحدرات، وحيث كانت الأحجار تتساقط بلا توقّف، وكانت الدوابّ مُجبَرة على أن تتكسّر خاصراتها بالسقوط من

أعلى، هي ومَنْ كانوا يمتطونها، ولو أن تلك الدوابّ كانت متعوّدة على التّقدّم بانتظام، فقد وجدتْ صُعوبة كبيرة أن تقُوم بذلك بطريقة أخرى، وكان ذلك، إذنْ، واحداً من أكبَر المخاطر التي اعترضتْ طريقَنا.

الوصول إلى تطوان

وأخيراً، في المساء، وَصَلْنا إلى [مدينة] تطوان التي كانت ما تزال تبتعد عن البحر بحوالي ساعَتَيْن. تمّ إيواؤنا بمنزل قنصل انجلترا(*)، حيث مَكَثْنا هُناك ثلاثة أشهر وخمسة أيّام، بسبب عدم وجود باخرة [تقلّنا من هناك]. لم تصل أيّ باخرة بسبب الموت الرهيب الذي كان مستفحِلاً بالبلاد. لكنْ، حين وَصَلْنا إلى هناك، لم يكن الأمر يتعلّق بالموت، وأن اليوم الذي حرَّرَنا فيه الملك كان قد مات بمدينة مكناس ٨٤ ألف شخص، وما يزال الموت مستمراً في الوقت الحاضر بمُعدّل ٥٠ إلى ٦٠ فرداً كل يوم. وخلال رِحلَتنا مررْنا أمام العديد من القرى التي اجتاحها الموت. وحوالي ١٥ يوماً قبْل وصول مُنقِذِنا، سجَّل الموت ظهوره مرّة أخرى بالمدينة، وهو ما جعلنا نخشى ألا أحد من النصارى سيتحرّر، بسبب الطاعون الذي كان مستفحِلاً.

في يوم ٥ أبريل من سنة ١٧٤٢م، وصلتْ سفينة إلى المرفأ، فتوجّه نحوها القنصل والسّيّد دون لويس بوتلر تحت مراقبة مَنْ أوجدونا، ذهبوا، ووصلوا إلى المكان عيْنه، فتبيّن لهم أنها سفينة إنجليزية، أُرسلت إلى هناك من جبل طارق بغية معرفة كيف هو وَضْع البلد، ومن أجل عقد

(*) William Pettiern H.

اتّفاق، لأن جبل طارق كانت تحصل على تموينها من طنجة وتطوان. لكن الحرب المندلعة بين إنجلترا وإسبانيا منَعت وصول أيّ مؤونة من هناك إلى جبل طارق، وكان الموت المستشري بين المغاربة سبباً آخر أيضاً في أن الحياة أصبحت باهظة الثمن، بشكل خطير، ولا يُمكن أن نحصُل عليها بالمال. لذلك بعثت تلك السّفينة التي حملت إلينا خبراً يقول إن سفينة حربية هولندية كانت قد غادرت المرفأ من أجل المجيء لمعرفة ما إذا كان أسرى مكناس قد وصلوا. علمتْ تلك السفينة الإنجليزية أن الموت ما يزال سائداً، فأبحرت مُجدّداً نحو جبل طارق، والتقت بالسفينة الهولندية حينها، وأخبروا قُبْطانها أنّ الأسرى في انتظارها منْذُ أكثر من ثلاثة أشهر، لكنّ الموت كان ما يزال مستأسداً. فأجاب القُبطان الهولندي بأنّه على الرغم من الموت ينبغي، مع ذلك الحصول، على الأسرى، وواصل الإبحار نحو المرفأ.

رأينا نحن الآخرون مع ذلك أن السفينة [الإنجليزية] تُبحر عَرْضاً، فوجدْنا أنفسَنا في أكبر ضيق في هذه الدنيا، وخشينا أن نعود مجدّداً إلى الاستعباد. لأننا لم نكن نستطيع تبيُّن أيّ سفينة كانت، واعتقدْنا أنّها ذهبَت بسبب الموت المُجتاح للبلد. ومع ذلك، شعرْنا بارْتياح بفعْل عودة القنصل وذلك السّيّد اللذَيْن قدّما لنا أخباراً موثوقة. بدا لنا ذلك اليوم طويلاً للغاية كأنّه سنة، لكن الليل بدا أنه أطول هو الآخر، لأن القنصل حمَل إليْنا خبَراً سارّاً، مفاده أن منقِذَنا على وشك الوصول [إلى تطوان].

في وقت مبكّر من اليوم الموالي، كان قد وصل المُنقذ إلى المرفأ، حيث ذهب القنصل رُفقة السّيّد دون لويس باتلر، بعد ذلك، وصعِدا إلى السفينة. ولم يتوصّلا إلى اتفاق حول حصص باقي أسرانا من أجل تأدية

ثمن الرحلة، ولا على هدايا الملك ومبعوثيه، كما أنّ الأسرى لم يكونوا كلّهم موجودين في المكان عينه، ولم تتمّ تسوية تكاليف إقامتنا خلال ثلاثة أشهر، إذْ أن قُبطاننا وجد صعوبة في تسوية ذلك كله. وهكذا لم يتمّ إنهاء الأمر، في الأخير، إلا يوم ١١ أبريل [من سنة ١٧٤٣م]، وهو ما جَعَلَنَا نذهب إلى السفينة ونحْن ممتلئين فرحاً.



الفصل الثامن
رحلة العودة

ركوب السفينة

في أثناء تلك الأيّام التي كانت تجري فيها المفاوضات، عشْنا أكبر خوف في الدّنيا، فَقَدْنا خلالها شهية الأكْل والشُّرب، كنّا نصعُد إلى سطوح المنازل حتّى نستطيع رؤية السفينة، ذلك كله من جرّاء خشْية أن نعود مُجدّداً إلى الأسْر.

وأخيراً بعد زوال يوم ١١ أبريل [من سنة ١٧٤٣م] ركبْنا السفينة. منذ أن رأيتُ معبر السفينة، صعدتُ إليه بسرعة، لدرجة أنني نسيتُ طفليَّ. كانت فرحتي عارمة جدّاً، وهو ما جعلني أنفجر نحيباً. انتابني إحساس أنّنا كلّنا عُدنا من الموت. سُمح لنا أنا وزوجي وطفليّ بالجلوس بمائدة القمرة، لكنْ، وبما أن السّفينة كانت صغيرة وقليلة المقاعد، تمّ وَضْعنا بقبْو الأشرعة، كي ننام به، وخلال النهار، بقينا بالقمرة. كان القائد يُدعى مارتينوس ميتن (Martinus Meitens)(*) هو الذي كان مسؤولاً عن السفينة، فيما بعْد، أصبَح قُبطاناً في خدمة الدولة وسفينتنا دوبراك ذات الثمانية غرف والثمانية باصات(**)، ويبلُغ عدد طاقمها ١٠٥ رجال، إذ لم تكن هناك أماكن للرّكّاب.

ولَدِي الذي كان يبلُغ حينَها سبْع سنوات تقريباً كان يقرأ ويكتب ويتكلّم اللغة الإسبانية، مثل الإسبان كلهم، لكنّه بمُجرّد أن صعد إلى السفينة، حتّى امتنع عن التّحدّث بتلك اللغة، فقال:

(*) Mijtens F.

(**) يُنظر الصفحة ٩.[F].

-"أنا الآن نصراني."

ولم يردْ أبداً التّحدّث بتلك اللغة، لا بوعود ولا بتهديدات، أمّا ابنتي الصغيرة التي كان عمرها ١٧ شهراً، فلم تكن تعرف أيّ شيء من ذلك.

الإبحار

في ليلة ١٢ و١٣ أبريل [من سنة ١٧٤٣م] أبْحرْنا بعْد أن أدّيْنا الواجب، وأبْحرنا في المياه الإسبانية، ثمّ في البحر الأبيض المتوسّط، وبعد مرور شهر، وجدْنا أنفسَنا مجدّداً بمرفأ طنجة، حيثُ أطلقْنا قذيفة مدفع، لكنّنا لم نتلقّ أيّ ردّ. أقْلَقَنَا ذلك على باقي الأسرى الذين وعَدنا الملِك بإرسالهم، بمُجرد ما سيتوصّل بثمن الفدية، وهو ما جَعَلَنا نعتقد أنّه لم يعُد ملكاً، وحلّ مكانه ملك آخر. أرْسَيْنا في انتظار الرّدّ.

ومع ذلك، فإسبانيو سبْتة برُؤيتِهم هذا عَدُّونا إنجليزيّيْن. وجاؤوا في سِرّيّة تامّة في ليلة غير مُقمِرَة، وتحديداً في رُبعها الأوّل قبْل منتصف الليل مُعتقدين أنّهم قادرون على الاستيلاء على السفينة. لكن جنُودنا رأوهم في الحين، وأطلقوا، على الفور، صفّارات الإنذار، ورموهم بالبحر، إذ إنّنا دافعْنا عن أنفُسنا بشكل جيّد. وجدتُ نفسي رُفقة طفليَّ داخل قبْو الأشرعة، ووجدتُ صعوبة في تنويمهما: فعند سماعهما ذلك الضجيج، اعتقدا أن المسلمين كانوا يحاولون إعادة القبض علينا. كُنتُ كَمَنْ يقول كل شيء النار واللهب، لأنني لم أكن أستطيع المناداة على أيّ أحد لحراسة ابنَيّ، وكُنتُ أريدُ المُساهمة بدوري، ما في وُسْعي، منْ أجل إنقاذنا. وأخيراً جاء المدير القائد على مقرُبة من الباب، للمناداة عليّ، وسألني كيف تسير أمورنا، وتوسّلتُ إليه أن يُرسِل واحداً من مواطنينا لحراسة طفليّ حتّى أتمكّن

من المساهمة في رَمْي أولئك المسلمين في البحر. عندما رأى أنني جدّ مهتاجة، قال لي إن أولئك الناس قد ذهبوا، كي أبقى بجانب ابنَيّ، وهو ما ضاعف من قلقي، ولم أستطع اتّخاذ أيّ قرار. لقد أجبروا الإسبانيّيْن على التراجع، وعفوا عنهم، إلى درجة أنّهم كانوا يبكون من شدّة الفزع.

أبْحر قُبطانُنا، واتّجهنا نحو المياه الإسبانية. وفي اليوم الموالي، أبْحرْنا نحْو المرفأ، فصعد القنصل والسّيّد باتلر، وقالا لنا إن هذه السفينة كانت إسبانية، وإن الملك ما يزال يتربّع على العرش، ولم يُرسِل سوى أربعة أسْرى، وما يزال يحتفظ بستّة آخرين، لأنهم اتّفقوا على أن يصنعوا بنادق للملك، ولم يكن يريد تحريرهم. لكنّهم فعلوا ما في وسعهم، من أجل الحصول عليهم.

قصّة كوْب

بوصُول أولئك الأربعة، بلغ عددنا ١٨ مُحرَّراً. كان واحد منهم قدْ حاول أنْ يتّهمَنا لدى الملك، وكنّا سنُحرَق أحياء، إنْ صدَّقه المَلك. يتعلّق الأمر بكوب لمولاي عبد الله، كانت قد أتتْ به والِدته من الأراضي المُقدّسة لنبيّها محمّد كهدية لابنها، وأهداه هذا الأخير بدوره لابنه البِكْر الذي حمله إليّ كتعهّد مقابل أن أمدّه بالكحول التي كان يُفرِط في تعاطيها، وكان منقوشاً على ذلك الكوب اسم [النّبيّ] محمّد، والذي كانوا يُجلّونه كثيراً. وكان النصارى الأربعة المذكورون يتردّدون يومياً على الملك، وبما أن واحداً منهم كان في حاجة إلى المال، ولم يجد أيّ طريقة أخرى للحصول عليه، ابتدع هذه الحيلة لانتزاع تلك القطعة، بوساطة واحد من إخوة الملك،

فاتّهمني بحيازة ذلك الكوب، وقال بأنني أستعمله بوَضْع الماء والقاذورات فيه. وإن علِم الملك بذلك، كنّا سنُعرَّض للعقاب دون تحرّيات، لكن القضية لم تصل إلى غاية ذلك.

وفي سنة ١٧٤٢م، قال لنا هؤلاء النصارى إن واحداً من إخوة الملك كان قدْ اتّهمَنا لدى الملك، وقال له إننا نتوفّر على كوب، وإننا وضعنا به تلك الأشياء غير القذرة كلها، وأنه سبق أن رآه بعينَيْه. لم نكن مرعوبين ومندهشين بمعرفتِنا بتبعات تلك التهمة. تمكّن زوجي بصعوبة من النطق بكلام. لكنْ، أنا مَنْ تدخّلتُ، وقلتُ إن ذلك الكوب كان يوجد مجدّداً لدى صاحبه، وإن الملك بمُستطاعه تفتيش بيتي بأكمله، ولن يجد به أيّ كوب، وأردتُ أن أذهب معهم على الفور إلى بيت الملك من أجل تبرئة نفسي، بالرغم من أنني في قرارة نفسي لا أفضّل القيام بذلك. لكنّني قلتُ ذلك حتّى أجعلهم يتأكّدون أن ذلك الكوب قدْ اختفى. وتظاهرتُ بأنّني غاضبة، وأنّني كُنتُ أُريد الذهاب إلى الملك، مهْما كلّفني الأمر، لكنّهم حبسوني، وهو ما فعلتُهُ عن طواعية. غادروا البيت، وأخرجتُ الكوب من حقيبتي، وطمرتُهُ في التّراب، كنّا في غاية الخوف، وهم أيضاً، لأنهم وشوا بنا لدى الملك، وأنهم لم يجدوا الكوب، وكانت تلك خدعتهم حينَها، وسيفقِدون الحظوة لدى الملك. ومع ذلك اختلقُوا، مجدّداً، حيلاً أخرى ومكائد جديدة من أجل الإساءة إليّ، لذلك كُنتُ أغنّي أحياناً:

-"هنا ليس الكفّار أو المسلمون مَنْ أقضّوا مضجعنا، وإنّما تمّتْ مضايقتُنا غالباً من قِبَل بعض الرعاع وبعض الأنذال [من أبناء وطننا]."

فالمسلمون أنفسهم استنكروا ذلك، وحارسنا نفسه كان يخشى أولئك البؤساء، وكان يتظاهر بتأييدهم والتخفيف عنّا بعد ذلك كثيراً [في غيابهم]،

قائلاً مهما طال بقاء جرّة الماء ستنكسر في النهاية، وهو ما سيقع لهم في يوم من الأيّام.

تشفّ

بينما نحن على متن السفينة، تكلّمْنا عن ذلك الموضوع، وحذّرْنا الرّبّان والطاقم بالاحتراس منهم، لأنهم كانوا جدّ مؤذين، وكان الناس كلهم قد حُذّروا منهم. كانوا بالكاد، منذ أيّام، على متنْ السفينة، قد حاولوا أن يُكرّروا مجدّداً مكائدهم. لكنْ، تمّ الاعتراض عليهم بُعيد ذلك. وحلّ حينها دوري للتّكلّم، وأخرجتُ كوبي، وأريتُهُ للناس كلهم، وقلتُ لهم:

-"اذهبوا الآن إلى الملك، وقولوا له إنّني أتوفّر على الكوب، كي يحرقَنا."

لكن القبطان ميتن (Meitens) وَضَعَ كمّامات على أنوفهم، وهدّدهم بتقييدهم بالحديد، إن لم يلتزموا الهدوء. وظلّوا هادئين إلى غاية وصولنا إلى لشبونة، حيث كانت سفننا الوطنية على موعد هناك، من أجل التّزوّد بالمؤن بعد رحلة بَحْرِيّة.

في لشبونة

في يوم ٢٠ يونيه، وَصَلْنا إلى لشبونة بُغية التّزوّد بالمُؤن،غير أن رحلتنا لم تنته، وكُنتُ حاملاً، وكُنتُ أرغب في الذهاب إلى هولندا، لكنْ، لم تكن هناك أيّ سفينة أخرى متوجّهة إلى الوطن سوى بعض السفن التجارية غير القادرة على حَمْل طاقم كبير جدّاً.

تمّ إنزالنا، إذنْ، في لشبونة، ووُضعْنا في المستشفى الهولندي، حيثُ

أمْضينا به تسعة أيّام، حين دخلتْ سفينة أخرى إلى المرفأ، كانتْ رحلتها البَحْرِيّة قد انتهت، وكانت ستُبحر نحو هولندا، فركبْناها.

سجن وعفو

بالكاد ما ركبْنا تلك السفينة منذ ثلاثة أيّام، حتّى واصَل أولئك الأنذال أدوارهم، وحاولوا ضرب صاحب النزل حتّى الموت، وهو ما ألحق الضرر بهم أنفسهم، لأن واحداً منهم أُصيب بجرح بليغ في يده. برؤيتهم بأنهم لن يبلغوا هدفهم، اندفعوا نحوي يهمّون بمهاجمتي أنا وزوجي. كُنتُ جدّ مضطربة، إذْ كُنتُ مُجبَرَة على أن أنزف خمْس مرّات على الأقلّ في يوم واحد. رأى القنصل والمقيم ذلك، فأودع البرتغاليّيْن قاطعي الطريق الرئيسين السجن، لكن أكثرهم إثارة للرعب تمكّن من الفرار بكثرة الحِيَل. بيد أنه منذ ذلك الحين ظلّت الأمور هادئة.

هكذا بقيا في السجن حتّى ركب الجميع سفينة القبطان صامويل هوكستراتن (Samuel Hoogstrten) الذي وجد هو الآخر صعوبة في إخراجهما من السجن، وهو ما تطلّب مصاريف إضافية. عادا، إذنْ، إلى متن السفينة، فأنّبَهما القبطان بشدّة، حتّى يلتزما الهدوء.

إلى هولندا

شرعْنا، إذنْ، في الإبحار، ولم يكن الطقس مواتياً لنا، لأنّه كان يتوجّب علينا الإبحار عكس اتّجاه الرياح، إذ إنّنا أُجبِرْنا على الدّنو من إنجلترا ببور

سموت، حيث تزوّدْنا بالمُؤن. وكنّا قد حصلنا على حصصنا من الطعام من بضعة أيّام، لأن أطعمَتَنا كانت قد نفدت من جرّاء تلك الرحلة الطويلة.

غادرْنا بورسموت(*) يوم ١٤ شتنبر [من سنة ١٧٤٣م]، ووَصَلْنا يوم ١٨ [شتنبر] سالمين معافين إلى طيكسيل.(**) وفي يوم ٢١ وَصَلْنا إلى أمستردام بعد غياب دام ٢٠ سنة. بحثتُ على الفور عن أقاربي ووالدتي وأصدقائي، لكنني وجدتُ أنهم قد قضوا كلهم، باستثناء أخ غير شقيق، أمضيتُ في بيته ١٥ يوماً، حتّى اللحظة التي رافقتُ فيها زوجي إلى ميدنبليك(***) مسقط رأسه. هناك استقررتُ، وما زلتُ أعيش إلى يومنا هذا.

لا أتحسّر على أني كُنتُ في ذلك المكان البعيد من العالم، ولا على ١٢ سنة من الاستعباد، ولا على الأذى الذي سبَّبه لي المغاربة. ذلك كله يمكنني نسيانه، لكنّ ما لن أنْساه هو الإهانات والشتائم التي كنّا عُرْضة لها أنا وزوجي، من قِبَل إخوتنا أبناء الوطن، من الصعب عليّ أن أحكي هنا كل ما ألحقوه بنا من سوء.

أشكُرُ الله بإخلاص على فضله، وأحمده على قدرته التي مكَّنَتْنا من النجاة أنا وزوجي وابنيّ، وأتمنّى أن يتمكّن أبناؤنا وبناتنا من الحديث مرّة أخرى عن مغامراتنا ببلاد المسلمين، لذلك قرّرتُ طبعها. حتّى يستلهموا منها ما يُمكّنهم من التّغلّب على أعدائهم، وأن يظلّوا سالمين، وكل مَنْ شملهم الله بحفظه بشكل مُعجِز، ممّنْ وضعوا ثقتهم فيه، وكيف يستطيعون

---

*) مدينة على الساحل الجنوبي لإنجلترا. [المترجم].

**) جزيرة هولندية تقع في بحر الشمال شمال هولندا. [المترجم].

***) مدينة في شمال هولندا. [F].

التّغلّب على أعدائهم، وأن يظلّوا سالمين وكل ما يمكن أن يقعَ لمخلوق إنساني. كل ما وصفتُهُ هنا كما الحقيقة نفسها. آمل أن يجد فيها القارئ الكريم ما يُمتِّع، وسأظلّ موجودة بفضل القارئ الكريم.

خادمتكم المتواضعة جدّاً
ماريا تير متلن
حُرّر بمدينبليك في ١٤ يونيه من سنة ١٧٤٨م.



فهرس المحتويات





من النادر أن نجد عنصراً نسويا بين الرحالين الغربيين إلى العالم العربي مشرقاً ومغرباً، وإذا ما استثنينا بضعة أسماء من الغربيات اللواتي توجهن إلى المشرق العربي، لاسيما البريطانيات ممن زرن الشرق في القرن التاسع عشر، فإن اللواتي ظهرن في المغرب كن غالبا من الأسيرات. ومن كتبن شهادات عن أسرهن هن ندرة نادرة. من بين هؤلاء صاحبة هذه المذكرات الهولندية مارية تير ميتلن Maria Ter Meetelen، التي وقعت أسيرة على يد القراصنة المغاربة، وتركت لنا نصاً رحلياً هامّاً عن الحياة اليومية في مغرب أواسط القرن الثامن عشر، وما عرفته السنوات التي قضتها هناك من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية متقلبة وصادمة.

يتميز النص بلغة تمزج بين الرحلة والسيرة الذاتية، روت فيه الكاتبة قصة أسْرها، وما حفلت به من وقائع مؤلمة واخرى طريفة. وعلى الرغم من اللغة التقريرية التي ميزت الكتابة عند ماريا تير ميتلن، فإن طريقة سردها للأحداث طبعت روايتها بطابع تشويقي مغامراتي مليء بالمفاجآت، ومنحت النص فتنة آسرة للقارئ.

جائزة ابن بطوطة

ISBN: 978-88-85771-44-4



المتوسط